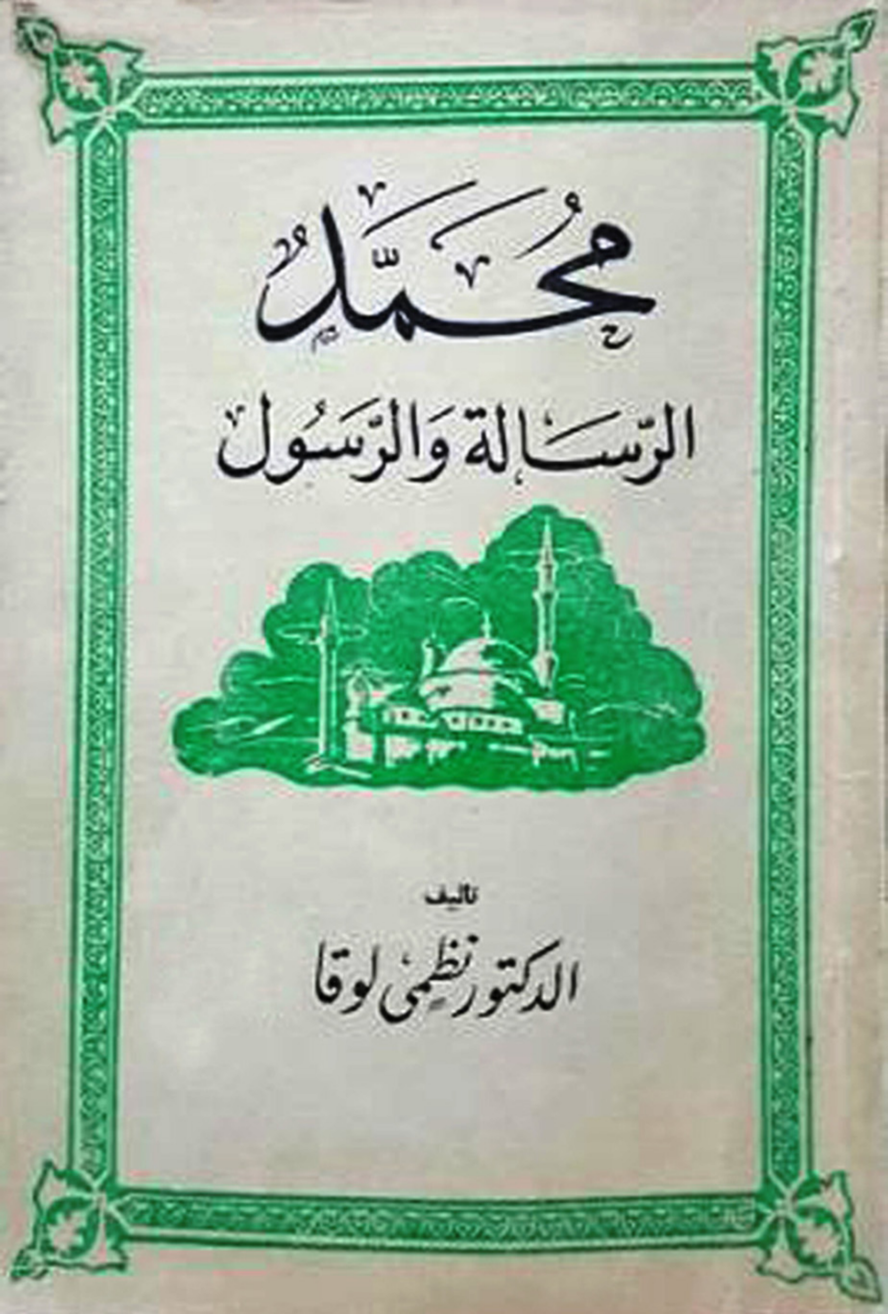
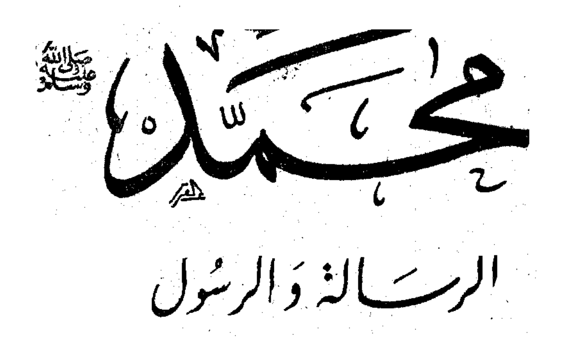

محمد
الرسالة والرسول
تأليف
الدكتور نظمي لوقا



بقلم

الدكتور نظمي لوقا

« لم آت لادعو خـطاة
الى التوبة ، بل الابرار »
هنريك ابسن

« وان من أهل الكتـاب
لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم
وما أنزل اليهم خاشعين لله
لا يشترون بآيات الله ثمنا
قليلا . أولئك لهم أجرهم
عند ربهم . »

صدق الله العظيم

(آل عمران)

« أفلاطــون حبيب الى
نفسي ، بيد أن الحقيقةأحب
الى نفسي من أفلاطون ! »
ارسطو

إهداء

الى السائرين فى الظلمة
والى من يلـوح لهم ـ من
أنفسهم ! ـ فجر جديد...
وايضا الى
الروح العظيم : مهاتما
غندى ، الذى كان يصـلى
بصفحات من براهما، وآيات
من التوراة ، والانجيـل ،
والقـرآن ، ومـات بيـد
هندوسى متعصب ، شهيد
دفاعه الصادق المجيد عن
حرية العبادةلأتباع محمد..

نظمى اوقا

مقدمة

من يغلق عينيه دون النور يضير عينيه ولا يضير النور .
ومن يغلق عقله وضميره دون الحق ، يضير عقله وضميره ولا يضير الحق .
فالنور منفعة للرائى لا للمصباح ، والحق منفعة واحسان الى المهتدى به لا الى الهادى اليه .
وما من آفة تهدر العقول البشرية كما يهدرها التعصب الذميم الذى يفرض على أذهان أصحابه وسرائرهم ما هو أسوأ من العمى لذى البصر ، ومن الصمم لذى السمع . لأن الأعمى قد يبقى بعد فقد البصر انسانا ، والأصم قد يبقى بعد فقد السمع انسانا ... أما من اختلت موازين عقله أو موازين وجدانه ، حتى مايميز الخبيث من الطيب ، فذلك ليس بانسان ، بالمعنى المقصود من كلمة انسان .
وبهدى من هذا النهج وجدت من واجبى أن أكتب هذه الصفحات، موقنا أن الانصاف حلية يكرم بها المنصف نفسه قبل أن يكرم بها من ينصفهم ..
وليس الانصاف مزية لصاحبه الا حينما يغالب الحوائل ، كالعقائد الموروثة ، والتقاليد السائدة ... أما حين يوافقها فما أهون الانصاف، « ولولا المشقة ساد الناس كلهم » كما يقول أبو الطيب . وأوشك أن أقول على غراره : « لولا العصبية أنصف الناس كلهم » ..
فما أحوجنا فى هذا العالم المضطرب الذى تقسمت فيه الناس معسكرات متقاتلة متلاحية من المذاهب والعقائد التى صبغت كل منحى من أنحاء الحياة ، أن نسعى للقضاء على آفة العصبية ، ونتعود الانصاف : انصاف الخصم وكأنه صديق ، فالمنصف انما يعنو للحق،

ويعنو لنوره في العقل ، فيشهد لنفسه بالفضل وحسن الرأى حين يؤدى لذى الحق حقه مهما اشتجر الخلاف أو لج الخصام ...

وما أرى شريعة أدعى للانصاف ، ولا شريعة أنفى للاجحاف والعصبية من شريعة تقول :

- ((ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا)) !

فأى انسان بعد هذا يكرم نفسه وهو يدينها بمبدأ دون هذا المبدأ ، أو يأخذها بدين أقل منه تساميا واستقامة ...؟

أجل ! نعدل ولا نجور ! فذلك حق أنفسنا علينا ، وحق عقولنا علينا ، وحق ضمائرنا علينا ، قبل أن يكون حق هذا من الناس أو ذاك ...

وما أرى الشانىء يضير خصمه حين يجور في الحكم عليه ، الا كما ضير امرؤ عين نفسه كيلا يرى من يسوؤه مرآه ...

ولست أحب ذلك لأحد ، بل انى أرى مستقبل هذه البشرية منوطا باحترام العقل وتقصى العدل وانصاف الخصم ، حتى يرتد بنو حواء اخوة يختلفون في مودة ، ويتباعدون الى تقارب ، ويفيئون في نهاية كل مطاف الى نور الله الذى كرمهم به ، وهو الحق والعدل ..

وانى لأسأل من يستكثر الانصاف على رسول أتى بغير دينه ، أما يستكثر على نفسه أن يظلمها اذ يحملها على الجحود والجور ؟ ..

ولست أنكر ان بواعث كثيرة في صباى قربت بينى وبين هذا الرسول ، وليس في نيتى أن أنكر هذا الحب أو أتنكر له ، بل انى لأشرف به وأحمد له بوادره وعقباه ...

ولعل هذا الحب هو الذى يسر لى شيئا من التفهم ، وزين لى من شخص هذا الرسول الكريم تلك الصفات المشرقة ، وجعلنى أعرض بوجدانى عن تلك النظرة الجائرة او المتجنية التى نظر بها كثيرون من المستشرقين وغيرهم الى الرسول العربى ، ولكنى حين احتكم الى العقل ، أرى الخير كل الخير فيما جنحت اليه ..

فلخير من يشوه المشوهون كل جميل وكريم من مفاخر البشرية المثخنة بالقروح والمخزيات ؟

ولخير من يثلب الثالبون كل مجيد من هداة هذا الجنس الفقير الى المجد ، المثقل بالخساسة والحقد ؟ ..

الا ان كل محب للبشر ينبغى أن يكون شعاره دواما :

ـ مزيدا من النور ! ومزيدا من العظمة ! ومزيدا من الجمال ! ومزيدا من البطولة والقدوة !

وبدافع من حب البشرية أقدمت على تسطير هذه الصفحات ، وسيان بعد هذا ان يقول عنها القائلون انها شهادة حق ، أو رسالة حب ، أو تحية توقير وتبجيل ، فما كان كآحاد الناس فى خلاله ومزاياه ، وهو الذى اجتمعت له آلاء الرسل ، وهمة البطل ، فكان حقا على المنصف أن يكرم فيه المثل ، ويحيى فيه الرجل ...

مصر الجديدة — دكتور نظمى لوقا

صبى فى المسجد ...

ضبى قصير ، نحيل ، عصبى الملامح ، واسع العينين ، تطل منهما نظرة تطلع ، وفى ثيابه اهمال ، وفى يديه آثار حبر ، ورباط حذائه مرسل يكاد يتعثر به وهو يمشى ، وسنه لم تتجاوز السادسة الا قليلا . يقطع الطريق جادا مسرعا بعد صلاة العصر بقليل الى مسجد فى السويس ، قريب من مبنى المحافظة بها ، لا يلوى على شىء .

ويتمهل الفتى عند دكان الحلاق الذى بواجه المسجد ، ليرى الشيخ جالسا ، بقامته المفرطة فى القصر ، وجبهته المفرطة فى العلو ، وبشرته البيضاء المحمرة ، وثيابه النظيفة الناصعة ، ولحيته الصهباء التى يخالطها بياض كثير .

ويقرىء الفتى استاذه الشيخ السلام ، ويهش الشيخ للقائه ويده تداعب ساعة جيبه الكبيرة المصنوعة من المعدن ، يفتحها ، ثم يتحسس عقاربها ، ويغلقها ثم يعيدها الى جيب قفطانه الأبيض .. وترتسم على وجهه ظلال ابتسامة ، يكاد الفتى يراها فى موضع عينى الشيخ ، لولا أن هاتين العينين أغلقهما مرض فى الطفولة الباكرة اغلاقا أبديا .

ويقبض على قلب الفتى قابض ، لم تذهب به الألفة المعادة كل يوم .. وينظر بحسرة الى صفحة السماء الصافية ، ويقشعر بدنه ويتنهد .

ما أنكد هذه الآفة .. انه ليؤثر الموت على هذا الحرمان الوجيع، من ومضات النور ، وهمسات ظلاله .. وهى تبدى أتفه وأشوه المرئيات .. حتى هذه البقية من الروث التى تركها حصان كان يجر عربة عابرة .. فكل شيء عزيز على العين ، حتى ولو لم يكن جميلا مرغوبا .. لأنه يبدى لها نورها .

ويتأبط الشيخ الكفيف ذراع الصبى . وانه ليضـارعه طولا ـ أو قصرا ـ ثم يدب بعصاه عبر الشارع .. والصبى لا يخطىء نظرات الفضول من الحلاق ، وزبائنه ، وعابرى السبيل . الى أن يدخل الشيخ وتلميذه من باب المسجد ، ليبدآ درسهما اليومى من بعد صلاة العصر ، الى صلاة العشاء .

ففى مدينة السويس الصغيرة ، سنة ١٩٢٦ ، لم يكن أحد من أهليها يجهل من الشيخ سيد البخارى ، امام مسجدها ، وعالمها وفقيهها . يجلونه ويرهبونه . فان له لعلمـا ورأيا . وان فيـه لشجاعة فى الحق ، وذرابة فى المنطق ، وأنفة تدخله لديهم مدخل الكبر الذى لا يغتفر لمن كانت به كالشيخ خصاصة شديدة ، يداريها بتجمل أشد .

ولم يكن أحد من أهليها يجهل كذلك من الصبى الصغير ، ابن ذلك الموظف النازح الى السويس ، فيه وسامة وأناقة ، وفى لسانه عذوبة وذلاقة .. وانهم ليعرفونه رجلاقبطيا صليبه .. يؤم الكنيسة يوم الأحد .

وفى مدينة كالسويس يتساءل الناس عن النازحين اليها والغرباء من الطارئين . وهم يعرفون أن لهذا الموظف والد الصبى أرومة

معرقة فى صناعة القسوس ، فكم له من جـد من ذوى الطيالس السود والعمائم السود .. فلا شك اذن فى قبطيه هذا الصبى الذى يرونه كل يوم يؤم مسجدهم الحنيف مع الامام العالم الشيخ .. وان الحيرة لتستبد بهم ، ثم تأخذهم نافلة من الغيرة ، يتهامسون بها فيما بينهم ويتناجون . ومن أم منهم المسجد لصلاة المغرب ، رأى الشيخ ينفض يده من درس الفتى فى مؤخرة المسجد ، ويتقدم فيؤم المصلين ، ثم يعود ليصل من الدرس ما انقطع . والفتى ينظر اليهم مصلين ، ويسمع لما يتلى فى الصلاة ، وفى عينيه ذلك التطلع القلق فمنهم من يزور عنه ، ومنهم من يحملق فيه بفضول .

وخرج بعضهم من النجوى الى العلن ، فجاهد الشيخ بما فى نفسه ، وراجعه فيما يفعل . فان كان حبا للتدريس ففيم رفض التدريس لابن فلان وفلان من الوجوه على ما بذلوا له من مال وفير ؟.. وان كان حبا للمال ، ففيم خطبه التى يحارب بها التقرب للأولياء ، وتقديم النذور ، ورفعه صندوق النذور من مسجده ، وقد كانت له من ذلك حصيلة طيبة ان شاء ؟..

ويغضبها الشيخ غضبة لله وبيوته ، ولسماحة دينه . ويبدى من ذلك مايفحم سامعه . ولكن السامع ينهض غير قانع مما سمع . لأن حجة العقل لاتقنع القلب . والقلوب التى لا يعمرها نور الحب ، لا تستجيب الا للأثرة ، والأثرة تتغذى بالعداء لا بالولاء .

ويضمر الشيخ فى نفسه أمرا ، فاذا كان الغد أرسل الى ذلك المعترض أن يوافيه بعد صلاة العصر لأمر . ويحضر الرجل وقد عقد مجلس الدرس بجوار عمود المسجد ويستمهله الشيخ قليلا

ريثما يفرغ له . ويتابع الدرس . وكان موضوعه تفسير سورة الضحى . ويتلو الصبى السورة بلسان قويم ، وايقاع سليم . ويختمها بصدق الله العظيم .. ثم يشرع فى تبيين معانيها ، مستشهدا بسيرة الرسول الكريم . والشيخ يناقشه حينا ، ويوجهه حينا آخر ، ويستوضحه حينا ثالثا .. حتى اذا بلغ الموضوع غايته ... وجه الشيخ الكلام الى صاحبه الزائر قائلاً :

ـ كيف بنوك يا فلان ؟

ـ بخير يامولانا .. يقبلون الأيدى ..

ـ تعرفنى يا فلان أمقت تقبيل الأيدى وأخذل عنه الناس .. أعرفت فيم أرسلت اليك ؟..

فأطرق الرجل وقال :

ـ عرفت يا مولانا ..

ـ انصرف راشدا ..

ونهض الرجل محييا . وتحرى أن يصافح الصبى الصغير فى مودة سابقة أشبه شىء بالاعتذار ..

ورآه الفتى بعد ذلك اليوم ـ وكان ساعاتيا له دكان قريب من المسجد ـ يستقبله بالتحية التى يلقى بها الشيخ ، كلما مر به قادما أو منصرفا .. ويكاد يلمس فى صوته وايمانه هزة الخشوع .

• • •

وكان والد الفتى ـ أكرم الله مثواه ـ شديد الولوع بالفصاحة والفصحاء . اتفق له شىء من قرض الشعر فى صدر شبابه . وآمن أن ولده البكر ينبغى أن يصيب من ينابيع الضاد وبلاغتها أكبر

حظ مستطاع . ورأى هزال ما يتاح لطلاب المدارس من ذلك كله فعهد بولده الى ذلك الشيخ الذى التقى به فى دكان الحلاق فبهرته منه شخصية مشرقة ، وذهن رحب ، وسماحة ما كان يتوقعها فى أحد الأشياع فقد سمعه يستشهد أمامه بآيات من الانجيل . وهو فى حديثه الدارج مع الناس من حوله لا يحيد عن الفصيح من اللفظ والجزل من التراكيب . فكأنما خرج الشيخ لتوه من سوق عكاظ . وهم الشيخ أن يعتذر بزهده فى التدريس ، لولا أن الوالد ذكر له أنه أقرأ ولده كليله ودمنة قبل أن تسمح سنه بدخول الدراسة الابتدائية .. وأن الفتى — وهو أصغر طلاب مدرسته وأقصرهم قامة — وجد نفسه فى مؤخرة صفوف الفصل فى أول يوم ، فرفع يده وقال للمعلم — وكان معمما — بلغة فصيحة :

— أريد أن أجلس بجوار السبورة !..

فضج التلاميذ بالضحك ، وقال المعلم ضاحكا :

— لك ذلك أيها الفيلسوف العجز !

فذهبت مثلا . وصارت هذه كنيته بين أترابه وأساتذته ، لأنه يأبى أن يحدث المعلمين الا باللغة الفصحى ..

— واشتهى أن يقوم لسانه بالقرآن ، وتتهذب نفسه بالمعلقات وعيون الشعر ..

فأخذت الشيخ هزة وقال :

— أما وأنت لا تريدنى على تدريس تلك المناهج السقيمة والخوض الى تلك المدارك الضحلة . فهذا مطلب تطيب به نفسى وينشرح له فؤادى .

ـ والأجر ؟..

ـ أمره لك .. وأكبر جزائى أن تزهر للعربية شجرة مثمرة فى قلب فتى أريب ، فى زمن أوشك اللسان العربى القويم أن يعز وجوده كالكبريت الأحمر !..

ووجد الفتى فى أستاذه المكفوف خزانة أدب وعلم وفقه وفلسفة .. وخلق !..

كان الشيخ يحفظ أشهر دواوين العرب وعيون الخطب .. وكان التعليم بالضرورة شفويا . ولابد فيه من ضبط مخارج الحروف ، واقامة النحو ، وتجنب اللحن ، وتوخى الجزالة ، فتعلم الفتى أن يتكلم وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح .

وبدأ الفتى يحفظ القرآن . ويقف عند كل آية ، ويملى عليه الشيخ موجزا لتفسيرها . ثم يملى عليه ما يتطرق اليه ذهنه الخصب بصددها من الأمثال السائرة والشعر المشهور . فتعلم الفتى كيف يربط المعنى اللغوى بالصورة الجمالية والذوق الأدبى.

وخرج الفتى مبرزا فى امتحان نصف السنة وأتى شيخه فرحا مرحا . فجعل الشيخ موضوع درسه ذلك اليوم بيتا من الشعر الحكيم ، ثم آية من القرآن الكريم . أما البيت فهو :

واذا كانت النفوس كبارا   تعبت فى مرادها الأجسام

وأما الآية فهى : ولا تمش فى الأرض مرحا ، انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا !..

وكان على الفتى أن يعالج الموضوعين بلسانه ، والشيخ يستدرجه ويحاوره على سنة سيدنا سقراط عفى الله عنه .. الى أن وصل

الى غايته من تصغير الغرور اليه .

وأتاه بعد ذلك بأيام حزينا مغيظا . فقد دعاه أستاذ الى السنة النهائية وطلب اليه أن يصحح ـ وهو التلميذ بالسنة الأولى ـ خطأ طالب طر شاربه وأوتى بسطة فى الجسم ، بعد أن عجز كل تلاميذ الفرقة النهائية عن ذلك التصويب ، فأجاب بداهة ، وأمر الأستاذ التلاميذ جميعا أن ينهضوا له واقفين ويحيوه تحيةالتعظيم.. ففعلوا صاغرين .. حتى اذا انقضى ايوم المدرسى ، تربصوا له بالباب وأحاطوا به وخطفوا طربوشه وجعلوا يتناقلونه بالأرجل . وصبوا على الصغير سخريتهم وآذوه باللفظ واليد ، حتى تمزقت ملابسه واحمر قفاه . ولولا انفته الشديدة لفاضت عيناه .

وعض الشيخ على نواجذه ثم قال :

ـ الموضوع الذى سنجعله مدار حديثنا اليوم هو : « آية الفضـــل أن تعادى وتحســـد » :

كل العداوات قد ترجى ازالتها الا عداوة من عاداك عن حسد ا

وتشعب الحديث وتطرق الى فنون من الفكر والشعر ، حتى اذا انتهيا الى قول ابى الطيب :

واذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل ...

استشعر الفتى العزة بعد الذل ، والكرامة بعد الهوان . ولما آنس منه شيخه أن جرح كرامته قد التأم ، انتقل الى جرح من نوع آخر : الى جرح أحدثه الحقد ، ونزعة فطرية الى الثأر ، فقال الفتى :

ـ أريد أن تعد لمجلس الغد قول أبى الطيب :

وأتعب من ناداك من لا تجيبه   وأغيظ من عاداك من لاتشاكل

وأيضا قول المسيح عليه السلام : أبت اغفر لهم فانهم لا يدرون ما يفعلون !

أمن عجب بعد هذا أن يكون الشيخ ملاذ الفتى فى كل ملمة ، ونبراسه فى كل مدلهمة ، وقدرته التى يأتم بها عقلا وقلبا وعاطفة وضميرا ؟..

لقد أصبح الشيخ القزم عملاقا ، وسكن اليه الفتى واطمأن ، وأخذ نفسه بأدبه وفضله . أمره الأمر ، ورأيه الرأى ..

وذات يوم أتى غلام صغير الى المسجد يلتمس الشيخ ، فعرف فيه الفتى خادم أستاذه . فقال له :

ــ « الولد » حضر يا مولانا .. الولد خادمك ..

فأشاح بعنقه كعادته حين يضيق بشىء سمعه . وأدنى الغلام وتسارا برهة ثم انصرف الغلام . وعندئذ قال الشيخ :

ــ ما هكذا يكون أدب السادة أيها السيد . كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فتاى وفتاتى ولا يقول عبدى وأمتى ..

وانطلق يوبخه بما كان للرسول وصحابته من أدب رفيع فى معاملة خدمهم . ثم قال له فى حزم :

ــ أرجو أن تفكر حتى غد ، وعندما تخلو الى نفسك فى المخدع ماذا لو كنت مكان أحد ممن تسميهم خدما ؟ فانه مثلنا ابن أب وأم . والدهر الذى جار عليه جار على سائرنا . وأحب أن تفكر فى قول الشاعر :

اذا ما الدهــر جر على أناس   كلا كله أناخ بآخرينــا

وأرق الفتى ليلته وقد تصور أباه هلك كما يهلك كل حى ، وتصور نفسه يتلقى الركل والسباب والاهانة خادما فى بيت كبيته هذا .. وطار قلبه شعاعا . وما استيقظ حتى تعمد أن يكون بالخادم فى بيته رفيقا رقيقا . ولما رأى أمه تسبه وهى تتعجله قضاء حاجة ثار بها ، وأسمعها طرفا مما وعاه من آداب الرسول وصحابته فى هذا السبيل . فاحتقن وجهها وأتت أباه فأخبرته . ووعدها أن يكون له مع الشيخ حديث فى ذلك النهار .

ولما حل العصر ، قيل للفتى انه لا درس اليوم ، وذهب الوالد فلقى الشيخ وقال له ان بالفتى وعكة . ثم تطرق الكلام الى بيت القصيد . وأدرك الشيخ مراد الرجل ، فقال محتدا :

ـ هل ترضى منى أن آخذ ولدك بغير الأدب الأكمل والنهج الأقوم وان أعرف الحق وأحيد به عنه ؟

ـ بل لا أريد ..

ـ وان أردت أنت فلن أريد ! لأن ذلك هو الغش البين . فهل تراك أخذت على الدهر ميثاقا وقد عجز عن ذلك الملوك والسلاطين وأصحاب الملايين من قبلك ؟

ـ ولكن الله يا مولانا رفع الناس بعضهم فوق بعض درجات ..

ـ ويداول الدنيا بين الناس ! ثم أما قرأت كتابك ؟ ألم تجد فيه أن المسيح عليه السلام ـ ورأيكم فيه ما تعلم ! ـ غسل أقدام حوارييه ؟ آداب الرسل ليس فيها تفاوت . وانما التفاوت عندنا حين نفرط فى لباب الدين لنتعلق بزخارف الدنيا .

وأعاد الرجل على زوجه حديث الشيخ ، وآذنها أن الفتى ممتأنف

درسه منذ الغد : فما كان ليحبسه عن رزق من الحكمة الرفيعة أتاحه له الله فى صورة هذا الشيخ .

ــ وانى يا فلانة لأستحى والله أن يظن الشيخ بنا أن آدابنا دون هذه الآداب .

• • •

كأنما همس الهامسون فى آذان الأبوين كما همس هامسون من قبل فى أذن الشيخ .. ولعل غيورا من أهل الخذلقة قال لهما :

ــ كيف تخاطران بالفتى هذه المخاطرة ؟ فانه يخشى أن يفتنه الشيخ عن دين آبائه .

ووجد الفتى أبويه يقرآن له فصــولا من الانجيل كل يوم . ويرسلانه الى الكنيسة يوم الجمعة . وجعلت أسرار العقيدة تصب فى دماغه صبا . فاستعصى منها على ذهنه ما استعصى . وناقش فقيل له ان الامعان فى التفكير يسوق الى الكفر ، وان المناقشــة سبيل الشك . ومن دخل الشك قلبه فارقته نعمة الايمان ، وبغير نعمة الايمان يهلك المرء ولا يدخل ملكوت السماء .

والتمس الفتى عند شيخه الهداية ، فتحرج الشيخ أن يطرق الموضوع ، بيد أنه حدثه عن العقل . وانه الامام الذى أنعم الله به عليه . وان الدين المتين يقوى بالتفكير والتعقل . وأن اليقين الذى لا يصمد للشك يقين زائف .. والمطمئن اليه مخدوع كمن يشيد بيته على الرمال .. وحدثه الشيخ فى ذلك اليوم عن رجــل سمع به حينئذ لأول مرة ، وكان لاسمه ونهجه أثر حاسم فى حياته من بعد . وحدثه عن « غندى » . وكيف يصلى بآى من القرآن

والانجيل والتوراة والبرهمابوترا . وحدثه عن متصوفة الاسلام ، وعن محيى الدين بن عربى .. وكيف أن لباب الدين كله واحدعند من ينفذون الى الجوهر وينبذون القشور .

ـ اقرأ يا بنى كتابك بنفسك . واحتكم الى عقلك ، واعلم ان كل دين ينهى عنقالة السوء، وعن فعل السوء، وعن تفكيرالسوء.

وسمع الفتى بعد ذلك واعظا مشهورا حضر الى المدينةواحتشد القبط لسماعه احتشادا مشهودا ، فاذا بعظاته كلها تنديد بطائفة البروتستنت ، سماهم الذئاب الخاطفة . وحضّ على اختصامهم . فلا يحل لقبطى أن يصافح منهم أحدا أو يرد عليه السلام !..

وصورت المخيلة الناشطة له أولئك الناس ذوى أنياب كاشرة ، ومخالب كاسرة . وذهب الى شيخه بذلك الحديث فزعا . فاغتم الشيخ وقال :

ـ أواثق انت مما سمعت يابنى ؟

ـ كل الثقة يا مولانا ..

ـ اعوذ بالله ! ان مسيح هذا الواعظ ليس مسيح الناصرة ولا مراء !.. فالمسيح الناصرى يقول : أحبوا اعداءكم وباركوا لاعنيكم !.. كبرت كلمة تخرج من أفواههم ! اقرأ انجيلك يابنى وافتح له بصيرتك .. واصدد عن مفسرى السوء ما استطعت .

ووعى الفتى درس شيخه ، فتزوج بعد عقد ونصف احدى بنات « الذئاب الخاطفة » المزعومين .

• • •

وحفظ الفتى القرآن لتسع ، ووعى المعلقات وديوان الحماسة.

وقرأ اللزوميات . وافتتن بأبى العلاء والمتنبى على وجه الخصوص.. وأصبح وسيرة الرسول والراشدين آلف لديه من عشرائه . يكاد يقدس ابن الخطاب وابن أبى طالب . والشيخ من وراء ذلك كله أعز عليه من أهل الدنيا جميعا .

أتاه ذات يوم باكيا . فسأله ما به :

ـ سعد يا مولانا ..

ـ رحمة الله على الزعيم الجليل ! ماذا ذكرك به ؟..

ـ ليس سعدا هذا .. بل الآخر ..

ـ ومن ذاك يرحمك الله ؟

ـ هو كبش كنا نربيه فى البيت .. غافلونى وذبحوه للعيد !.. ولما بكيت سخروا منى .. ولم يكفهم أن يأكلوا منه . فارادونى ـ وألحوا ـ أن آكل منه مثلهم .. فأبيت !..

ولم يضحك الشيخ بل رق للفتى رقة واضحة .

ـ ولماذا يسخرون منك ؟ لقد بكيت من أحببت !..

ـ أليس كذلك ؟.. وقالوا حرام ألا نأكل مما أحل الله ..

ـ ليس حراما أن تحب شيئا خلقه الله ..

ـ وقالوا أتحب خروفا كأنه أخوك ؟..

ـ الحب يابنى شىء جميل جليل .. ولو كان لشىء تافه ضئيل.. ألا يحب الواحد منهم أصصا من الزهر ؟.. أو حلية من الجوهر؟. لا تثريب عليك فيما أحببت !.. فليست قيمة الحب فيما نحبه ، بل فى حبنا له .. وان لك لقلبا سخيا وفؤادا ذكيا ..

وأصبح الشيخ أقرب الى الفتى من آله وذويه ، بهذا الفهم ،

وهذا الحس .

• • •

وأصيب شقيق للفتى فى مهده بمرض طويل ، أكل علاجه الأخضر واليابس ، ثم مات. فركب الأسرة دين وسافرت أم الفتى — وهى حامل فى شهرها الثامن — الى القاهرة تطلب من أمها الثرية حفيدة القسوس جزءا من حقها فى وقف جدتها . وكانت أم الفتى وحيدة أمها . ولبثت الأم فى سفرها ثلاثة أيام أحس الفتى فيها بالوحشة . ثم عادت الأم من سفرها خاوية الوفاض ، دامعة العين . وقد أبت عليها أمها الثرية سليلة القسوس حقها وهى بين الثكل والحمل والحاجة مهيضة الجناح مضعضعة النفس .

وقامت فى البيت ثورة هوجاء وصبت اللعنات على تلك الجدة القاسية التى لا تعرف للأمومة معنى ، ولا تقيم للرحمة وزنا .. وقررت الأسرة أن تضغط المصروفات كلها لمواجهة الأزمة . فانتقلت الى بيت أرخص أجرا وقطعت تيار الكهرباء واستغنت عن الخادم والغاسلة . وأقبلت الأم الحبلى تعمل بيديها كل شىء .. حتى الخبز !..

وتقرر فيما تقرر الاستغناء عن الدرس . وكان الشيخ قد عرف طرفا من ذلك الحديث من الفتى الذى لم يكن يطوى عنه أشجانه.. فاذا به يسكت عندما فاتحه ابو الفتى فى انقطاع ابنه . وينصرف الأب الى داره ، واذا بالباب يطرق بعد قليل . واذا بالشيخ الضرير يقوده صبى الحلاق . ويبادر الوالد قائلا :

— ما أظنك تأبى أن أكون أنا ضيفك كل يوم ساعة أو نحوها ..

وعرف الفتى أن الشيخ عازم أن يستمر الدرس ، بغير مقابل ، وأن تلطفه شاء له أن يكون هو الساعى الى تلميذه ، صونا لعزته وزيادة فى مروءته .

ولم يسع الفتى الا أن يقارن فى نفسه بين فعل جدة تنتمى للمسيح وتتشدق باسمه . وبين فعل شيخ يصلى بالناس على محمد وآله خمس مرات فى كل يوم !..

ليس البر وقفا اذن على دين دون دين .

• • •

وفى العاشرة رحل الفتى عن السويس . ولم ير الشيخ بعدها . ولكن الشيخ ظل قائما فى عقله ونفسه ولسانه .. فقد صاغ الشيخ فى الفتى ذلك كله ، وفتح عينيه على احتقار الجاه واحترام العقل وتقديس العدل وشجاعة الرأى .

الآية الكبرى

وقرأ الفتى كتبه .. وأعاد قراءتها فى الحين بعد الحين ، فقد كانت وثيقة الصلة بأزمة وجدانه وعقله وهو يقلبها بين السماء والأرض ، لا تسكن نفسه من شك ، ولا يسكن عقله من تطلع .. وأعيا عقله أن يجد تفاوتا فى نسق الكتب الموحى بها وسياقها . فهى بلا استثناء تنتهى الى ضرورة الايمان الذى ينبع من القلب ويفرض أضواءه على كل معتقد بدين .

وهنا وقف الفتى الذى درج الى الشباب وقفة لم يكن منها مناص : ان تكن هذه الأديان صحيحة ، فبأى حجة وبأى مقياس يمكن الطعن فى صدق رسالة محمد ؟

ما من نبى حمل الينا توكيلا موثقا بأنه ينطق بلسان الوحى . وانما كانت آيته صدق ما أتانا به .. وأما المعجزات فلا حجية لها الا لمن شهدها شهود العيان .. وبيننا وبين ذلك أجيال وأجيال . فتبقى بعد هذه الآيات المغايرة الآية الكبرى التى لا يثبت بغيرها صدق ، ولا يغنى عن غيابها ألف دليل مغاير ، مهما بلغت درجته من الاعجاز . وهذه الآية الكبرى هى صدق الكلمة من حيث هى . فان الحقيقة آية نفسها ، تحمل برهانها فى مضمونها ، فيطمئن اليها العقل ويبدو ما يباينها هزيلا واضح البطلان .

ان موقف الناس من الوحى واحد أيا كانت الرسالة الموحى بها والرسول المخبر عنها.. لم يطلب من رسول قبل محمد برهانا عيانيا

على وحيه كي يطالب به محمد . فمن اعترف بوحي من السماء الى رسول من البشر ، لزمته الحجة ألا ينكر نزول الوحي على محمد من حيث المبدأ . فوجه الامتناع هنا غير قائم بمبرر نزيه .

ولا يتبقى بعد سقوط الاعتراض على الوحي من حيث المبدأ ، الا النظر فى مضمون ذلك الوحي . فان كان هذا المضمون حاويا آية صدقه فى ذاته . وليس فيه ما ينقض طمأنينة العقل أو يريبها ، فلا مفر من الاقرار بصدقه .

ومن هنا وجب النظر النزيه فى رسالة محمد ، والبحث فى مضمونها ، لنلتمس فيها آيات الصدق التى صدق الناس بمثلها من سبقه من المرسلين ، ولنرى هل فيها ما يدعو للريب ، ويبرر دمغها بالزيف أو الدجل أو البطلان .

ذلك هو الحد القوام الذى لا افتئات فيه على انصاف ، ولا ينبغى أن يحيد عنه من له فى النزاهة مطمع .

ان السلعة الأصيلة هى التى تؤدى للناس ما لا تؤديه سلعة أخرى وان كانت تشبهها فى بعض الوجوه . وليست تقليدا أو تزييفا لسلعة سابقة عليها .. بحيث يكون غيابها نقصا واضحاً لا محل فيه للانكار .

عرف الناس السفينة ذات المجاذيف ، وعرفوا السفينة ذات الشراع ، ثم عرفوا السفينة التى تسير بالبخار . وكلها سفن ، ولكن الخلاف بينها واضح فيما تؤديه للناس من خدمات .

كذلك العقائد والأديان . كلها عقائد غيبية . تحدد صلة الانسان برب هذا الكون . ولكنها تتباين بوجه من الوجوه .. وهذا

تعليل توالى الديانات والرسالات السماوية مع أطوار البشر ومستويات ادراكهم ووعيهم العمرانى .

لزم اذن أن يكون لكل ديانة طابعها المميز الخاص بها . وأن يكون هذا الطابع المميز هو « سبب وجودها » أو موضوع وجودها .

فهل للاسلام هذا السبب ! وهذا الموضوع ؟

وبعبارة أخرى . ان الوظيفة تخلق العضو . والحاجة تخلق السلعة . فان تحدد بعد الأديان السماوية السابقة للاسلام موضوع معين أو دور معين لعقيدة سماوية تحددها احتياجات التطور البشرى ، لثبت أن ظهور ديانة جديدة لم تكن تعسفا أو فضولا أو اصطناعا لجأ اليه مغامر أفاق ..

ثم يلزم النظر فى الاسلام . وهل جاء مؤديا لتلك المهمة ـ أو الرسالة ـ فان صح ذلك ، كان عقيدة صحيحة جاءت فى ميقاتها الطبيعى لتقوم بدورها أو وظيفتها المهيأة لها بأطوار العمران البشرى .

ان كل من آمن بالأديان ورسالتها ، وبالعقائد ووظائفها ، لا حيلة له فى اتخاذ هذا المقياس الموضوع الذى يعدل فى النظر الى العقائد بعامة ، والا يكون محض وارث لعقيدته متعصب لها عصبية عمياء .

وما على المنكر الا أن يبين لنا مقياسا آخر نعرف به وظائف العقائد ويفسر لنا تواترها وتعاقبها على مرور الأجيال قبل دعوة محمد .

ان قال بالوحى هناك ، فما هو دليلك على صدق وحى من قبل محمد ، بحيث يفتقر وحى محمد الى ذلك الدليل ؟

لم ير أحد ملك الوحى هابطا على من قبل محمد ، حتى نطالب

بظهور جبريل وهو يهبط بالوحى عليه .

وأن قال ان الديانات تعاقبت بغير علة لهذا التعاقب من مضمون الرسالة ومؤداها ، فقد نفى الحكمة من التعاقب ، بل نفى الحكمة من الدين عامة . فان الشرائع التى تتكرر بغير تعديل قول معاد ، فى غير حاجة الى اعادة .

فاذا تذكرنا أن البشر يتطورون ويتقدمون فى وعيهم العمرانى ، كانت الاعادة المكررة تقصيرا . فلا يبقى الا أن الشرائع السماوية تلاحق البشر فى تطورهم ، كما أن غذاء الانسان يلاحق المرء فى تدرجه من الرضاع الى الطفولة والبقاع والكهولة .

وهذا يردنا الى تمايز الرسالات الدينية ، وتفرد كل منها بخصوصية هى موضوع وجودها أو هو وظيفتها .

ولا يبقى بعد ذلك جاحد لهذا الموقف الا من يقول: هذا رأيى وكمى !.. ومثله لا يعول له على رأى ، لأنه مكابر بغير عقل ، فلا يستحق ان يتجشم خطابه أو اقناعه ذو عقل .

الانسان والدين

كل انسان ذو وعى. وفى كل وعى احساس فطرى بالوجود كافة هو أساس كل وعى .

وفطرة الوجود فى وعى الانسان أشبه بفطرة المنطق فى عقله . بيد أن فطرة الوعى أبعد غورا من فطرة المنطق . ولهذا فهى أشد غموضا ، وأشق تناولا ، وأصعب استخراجا .

ولا تمنع فطرة المنطق من خطأ الناس فى اتخاذ ما يناسبها من الموضوعات عند التطبيق والممارسة . كذلك فطرة الوجود الشائعة فى وعيه بصفة ضمنية من العسير جدا أن يستخرجها المرء ليجعل منها موضوعا متميزا واضحا . فان العين ترى الأشياء جميعا من دون نفسها . فلا عجب أن يتعذر على وعى الوجود تمثل حقيقة معدنه ، وهو الذى يطلعنا على وجود كل موجود جزئى .

ولكن طوفان المحسوسات على اختلاف ضروبها فألوانها تطبق على الانسان ، ولذا فهو يريد من كل حقيقة أن تكون ذات جسم يقع تحت الحس .

ولما أنس الانسان فى نفسه فطرة الوجود ، وعناه أمر الوجود ، حسب لغلبة الحس عليه أن حقيقة الوجود العظمى ينبغى أن تكون فى هيئة محسوسة ، فراح يشخصها فى أهول ما يعرف من الأشياء الواقعة تحت حسه . وكلما ترقت لديه صورة القوة ، تغيرت الصورة التى يشخص فيها حقيقة الكون وقوته .

ومن هنا بدأ ذلك التاريخ الطويل الحافل الذى هو تاريخ العقل الانسانى ـ من التعدد والتجسيم ، الى القول بالروح ، ثم القول بالوحدانية التى تجتمع الى القضـاء والقدر والى وحـدة الوجود أو الى الفناء الاسمى ، ثم الى القول بأن الله هو الذات الكاملة بالاطلاق ، وانه مصدر الوجود لكل ما هو موجود .

وقد صاحب ترقى الانسان فى مدارج المعرفة ترق مساو له فى الكرامة . فكان أول ما توسم فيه الانسان قوة الكون وحقيقته هو أقوى ما اتفقت له معرفته. فعبد الضوارى. ولما زادت معرفته بالأرض والأجواء ، وأدرك من أسرار الفلك ما عرف ، كان أقرب الى تقديس مصدر النعم التى تقع تحت حسه ، فعبد الكواكب والأقمار ، ثم عبد الشمس فى نهاية المطاف .

ولكثرة ما آنس من مصادر الرهبـة ومبائق النعمـة كثرت موضوعات تقديسه وتعددت . وعبد الكثير من تلك «الشخوص» بجعل بعضها فوق بعض درجات ، بحسب مالها فى نفسه من رهبة أو منة أو مطمع .

ومع ارتقاء العلم وتقدم الحضارة قوى شعور الانسان بالمنعة، وارتقى نظام الجمـاعة ، وتدرج من القبيلة ، الى الملك المستقر والدولة ذات الأيد والسلطان .. وعندئذ دخل أولو الأمر على الأنفس والأموال فى عداد المقدسات ، حتى اذا قضوا نحبهم كان اكرامهم سبيلا الى التهويل فى أمرهم ، حتى يدخلوا محاريب الآلهة واتخذوا لأنفسهم بينهم مكانا . ثم عقد الناس بين المعبودين من الموتى وبين آلهتهم نسبا ، فجعلوا أسلافهم وملوكهم المعبودين

أبناء الآلهة بالروح .

ومع عبادة الموتى نشـأ سلطان الروح التى لا تبلى بالموت ، والتى ليست من معدن البدن ، فانفتح بخلود الروح أمام الضمير الانسانى أفق رحيب ، وكان ذلك نقطة تحول حاسمة فى تاريخ العقيدة .

ثم نظر الانسان فى العالم ، فاذا بقواه التى يرمز اليها بآلهـة تسير حسب نظام لا يختل ولا يحيد . وينظر فى المحسوسات فاذا بها متغيرة لا يفتر لها تغير . فأدرك أن نظام هذا الكون منوط بحقيقة تبقى اذا ذهب المحسوس ، وتثبت اذا بطلت دعواه .

ومن هنا نبتت فكرة الاله الواحد الذى يخضع له جميع الآلهة، وانه بصير مدبر ، لا تدركه الأبصار والعقول .

وارتفعت فى مصر صيحة التوحيد من قلب ذلك الرائد الروحى الفذ اخناتون .. ولكنه كان سابقا لزمانه بكثير فانتكست الدعوة من بعده وارتدت مصر الى سيرتها الأولى فى العبادة والتجسيم .

ومن قبيل صيحة اخناتون ما تضمنته أشعار الهنود فى سبحاتهم الروحية العالية ، كقول حكيمهم العظيم سنقره ، قبل المسيح بثمانية قرون ، هاتفا من أعماق روحه المتجردة :

« اللهم عفوك عن ثلاث : ألبستك فى تأمليك صورة ، وأنت بغير صورة . وجعلت لك فى مدحيك النعوت ، وانت أجل من كل صفة . وتعبدت اليك فى الهياكل والمحاريب ، وانت حاضر فى كل مكان .. »

ولكن سواد الناس لم يخلقوا لفهم هذا التجريد السـامى ،

فكانت لهم سقطات من الايغال فى الحس من حيث نشدوا الانطلاق من اساره . فاتخذ الدهماء البقرة معبودا . وانما المراد أصلا هو اظهار التعاطف بين الانسان واخوته فى الحياة ممن هم أدنى منه فى رتبة الخلق ، وليس فى نظرهم أحرى من البقرة بهذا الاخاء ، لانها تخدم الانسان وليس له أن يخشى منها اذى ...

وغلا الناس فى بقاع أخرى من الأرض فى تنزيه الله ، فجعلوا الخير منه. وأما الشر والنقص الموجودان فى عالم الحس فنسبوهما الى اله غيره ينازعه السلطان . ولا يفتآن يتنازعان الى أن يستقر الأمر لله فى آخر الزمان! ودعوا الله هرمز، ودعوا اله الشر اهرمان..

وبقى بعد ذلك أن يهتدى الناس للايمان باله وحده ، لا تتشخص حقيقته ، ويدركوا انه لا يمكن أن يعرف كنهه ، لان كل مجهول انما يعرف ويحد بما هو أعرف منه فى العقل . وليس الله فردا من نوع ، أو نوعا من جنس معلوم . فارادة معرفة حقيقته جهل فاضح بالمطلوب ...

أجل . بقى للبشرية أن تدرك هذا ، وأن تستقر على عقيدة كاملة تامة ، تكون مصدرا للروحيات ، ومناطا للحق والعدل فى الدنيويات .

وهذه هى المهمة التى نهضت بها الأديان الكتابية التى هدت الناس الى وحدانية الله ، ذاتا قائمة فوق كل قيام ، هى مصدر الحق والوجود ، لا تدرك ، ولا يحاط بها ، وانما يعيها الانسان بما فطر عليه من طلب العقيدة . ويقيس صوابها بما ترضى لديه

من ملكة الاعتقاد ، ومن فطرة الوجود التى يأنسها منطبعة فى أغوار نفسه ، فيحصل لديه الايمان الذى لا محل معه لسؤال ، لحصول الطمأنينة التى تشبه النور فى رأى العيان . وليس النهار بحاجة الى دليل ولا النور بحاجة الى برهان .

دين شعب

وأول الأديان الكتابيـــة المشـــهورة هو دين بنى اسرائيل . أولها فى التاريخ ، وأولها فى أطوار العلاقة بين الخالق والمخلوق .

فهو وان كان دين توحيد وتنزيه ، بيد أنه اختص به شعب معين دون سائر الشعوب ، فهو اذن ليس الدين الذى يهتدى به الناس كافة ، ويجدون فيه شبع حاجتهم الفطرية الى العقيدة .

والدين الذى يختص به شعب بعينه لا بد وأن تتمثله سريرة ذلك الشعب ، فتكون سيرتهم فى العمل به كسيرتهم أصلا،بحسب عقليتهم وفطرتهم وطبعهم . وكان بنو اسرائيل من قبل قوم أوثان وتعدد وتجسيم . وكانوا أشتاتا فى الأرض ينزلون هنا وينزلون هناك على شعوب غريبة ، فينفسون على أهل البلاد الاصلاء أن لهم وطنا وبأسا وسيادة وغلبة .

والناس منذ قديم يلتمسون فى أربابهم النقمة أو قوة السلطان والقدرة على المعونة . فالتمسوا فى الاله الواحد أن يختص بهم، لايعبده أحد سواهم . وان يغلبهم على من عـــداهم من الخلق ، وأن يمكن لهم فى أرض العباد ورقابهم ..

والدين ــ بما هو دين شعب ــ حرى أن يعنى بسن القوانين فى المعاملات ، وأن ينهى عن التجسم . ولكن لابدأيضاأن يعوضهم عن أهدافهم التى صدهم عنها أهدافا أخرى . فليقيموا اذن الهياكل كما تقيم الأمم الوثنية الهياكل لأربابها ، وليقـــدموا القرابين

والذبائح كما كان يقدمها عباد الاوثان ، مع فارق واحد هو أن من يتوجهون اليه بقرابينهم وشعائرهم فى تلك الهياكل والمذابح هو الاله الواحد الخالق القادر ... اله اسرائيل .

وكان قوم اسرائيل حديثى عهد بالتجسيم والشرك . وكانت آفاقهم آفاق الدنيا المادية . فعبدوا فى الاله الواحدمصدرالمعاش، وسند الملك ، وجبروت الانتقام ومناط المعامـلات بين الأفراد . وانتظروا منه أن يكون لهم عونا على جبروتهم ، وذهبوا الى حد الاعتقاد بأن الحق والعدل مما شرع الله غير مطلوبين من العبرانى الا نحو عبرانى مثله . أما مع غير العبرانى فلا حق له عنـدهم ولا شرع ولا عهد .

ثم أسف، الشعب المسف بالتوحيد نفسه حتى جعلوا الاوثان فى بيوتهم ، يسمونها « الطرافين » .وحتى اقيمت للبعل وغيره مذابح فى قلب هيكل سليمان .

وشعب هذاشأنه لايصد عنالاسفاف والانتكاس الابالتخويف، وهزيم النذير بين يدى عذاب شديد . فامتلأت أقوال أنبيائهم المتعاقبين بهذا التحذير والتهديد حتى صارت الصفة الغالبة للاله الواحد عند بنى اسرائيل أنه رب الجنود . وأنه القـوى المنتقم الجبار الغضوب .

كان من ينتكس من القوم يعبد الوثن مرتدا ، أو يجعل ذلك قربى لله وزلفى . ومن لم ينتكس هذه النكسة حسب التوحيد وعبادة الواحد الأحدلا تتم الا بالاغراق فى الطقوس والمراسم، فسمعنا بأهل الفقه يختلفون على فطيرة التقدمة هل تكون مملحة

أو غير مملحة . وكم تكون مقادير أخلاطها . فيكون عن اختلافهم شغب وقتال شديد !..

ذلك كله يصور سريرة ذلك الشعب ، ويطلع على ما تصير اليه عقيدة التوحيد والتنزيه اذا صارت الى قوم تملأ قلوبهم المنافع والحرص على الدنيا . فهم لا يبغون رضوان الله خالصا لوجهه ، ولا يعبدونه خالصا لوجهه ، ولا يجلونه عن هذه المراسم المادية فى تقديم القرابين والذبائح . اذ لا وجود فى أخلادهم الا للمادة وما يتفرع عليها . أما الروح والضمير . أما النظرة الشاملة لبنى الانسان كافة . أما الاخاء الذى يربط الأحياء برباط واحد هو رباط الوجود الحى . فذلك وعى لم يكن لديهم الا مطموسا . فلم يكن همهم من الدين الا تشريع المعاملات الذى يستحلون به أموال سواهم من الامم ، وطقوس فى العبادة هى أيضا ضرب من تشريع المعاملات وصيغ السندات والديون والمطالبات . فهى عبادة فى مقابل مؤازرة على عدو ، أو زيادة فى ادرار الرزق ..

دين قلب

ولكن العقيدة حاجة روحية أصلا . فلن تطول القناعة بالقعود دون التحليق ، ولن يطول الطور الذى يكتفى فيه بعقيدة يختص بها فريق من الناس دون فريق . فليس للروح والضمير وطن ولا جنس . والعقيدة التى يقنع بها الضمير ويطمئن اليها لا بد أن تفتح الباب لجميع الشعوب ، وأن تفتح على الخصوص أمام النفس آفاقا عالية ، تتجه خلالها الروح الى الله ، لا لانه المرهوب الوهاب ذو الايد والمنة فحسب ، بل لانه مصدر الحياة والوجود والمثل الأعلى والمطلب الاسمى للاعتقاد ، تتجه اليه النفس مشوقة غير مسوقة . ولا تستغنى بالمراسم والمجسمات المحسوسة عن الغبطة بتأمل ذلك الكمال الأبدى المطلق الذى لا يتجسم ولا يدرك بالحس . ففى الاتجاه اليه سبحانه سعادتها الكبرى . /

وبهذا ، كان الطور الطبيعى للانسانية أن تطلب الهداية فى رسالة المسيحية التى لا تدعو الى التوحيد والتنزيه فحسب ، بل تجعل الله المعشوق الاسمى الذى يتجه اليه وجدان كل انسان ، فيتلاشى من قلبه حب كل معشوق سواه . ولا يبقى للحس وجاهه سلطان على قلب ذلك المحب . ولا للطقوس قيمة : لأنه اذا حضر المحبوب لم يكن لتملى رسمه على الورق أو مناجاة طيفه معنى .

وأعنى بالمسيحية هنا ما جاء به المسيح من نصوص كلامه ، لا ما ألحق بكلامه وسيرته من التأويل .

فالمسيحية بهذا الاعتبار هى دين القلب الانسانى من حيث هو كذلك ، بصرف النظر عن الفوارق الاقليمية والشعوبية ...

ولهذا نجد دعوة المسيح خالية من المراسم والطقوس ، كما خلت من تشريع المعاملات ، لأن موضوع المعاملات والحياة الدنيا برمتها لم تدخل له فى حساب بشقيها من مال وقصاص ...

ولكن البشرية لم تنضج لهذا الدور نضوجا واحدا متساوقا . لأن عقيدة القلب الخالص من كل علائق المادة هى بطبعها عقيدة الأفراد الأفذاذ . أما السواد من الناس ، فللحس على قلوبهم أبدا سلطان غير مجحود ولا مردود .

لهذا بقيت المسيحية فى حقيقتها بين قلة من الأفراد ميسرين لها . وكانت نتيجتها المنطقية تلك الرهبانية المنعزلة عن الدنيا ومعاناتها . أما السواد من الناس فراحوا يلبسون أوثانهم الحسية وعقائدهم المادية طيالس العبادة الجديدة ، فتمثلوها كما تصورها لهم عقولهم. واطمأنوا الى هذا التصوير .

ولهذا لم يستطع السواد الارتفاع الى المستوى الروحى العالى الذى هو مضمون دعوة السيد المسيح ، ولم يسلموا — لتعلق قلوبهم بالدنيا وغشيان المادة وسلطانها على تفكيرهم — من ظهور عقابيل التجسيم والتنطس فى المراسم تتخذ عناوين الدين الجديد وتتزيا بزيه ، لأنها نظم تقابل حالات النفس التى لم تنضج بعد لدعوى الروح الخالصة من قيد الجسد وشهواته وأوهامه .

دين البشر

ولم يزل الناس بحاجة اذن الى عقيدة جديدة ، يجتمع اليها العقل والقلب جميعا ، وتصحح ماتردوا فيه من الأخطاء فى تفهم ما سبق من عقائد ورسالات .

ان الناس بحاجة بعد الى دين يؤكد وجود الله ، وانه خالق الخلق ، وانه الكامل المنفرد بالكمال ، بيده الأمر ، وهو على كل شىء قدير . حتى تنتهى دعاوى قدم المادة ، وشبهة تفردها بالوجود ابتداء . ويؤكد وحدانية الله توكيدا يقضى على عقابيل التعددفى تصور الاله .. ويلزم كذلك أن يؤكد هذا الدين التنزيه لله ، حتى لاينزلق الناس الى التجسيم الذى طالما وقعوا فيه بعد كل دعوة للتوحيد بسبب غلبة الحس عليهم .

هذا من جهة مضمون العقيدة الجديدة .

أما من جهة موقعها من الناس . فينبغى أن يتجه الدين الجديد الى الناس كافة . لا فرق فيهم بين شعب وشعب ، ولا بين جيل وجيل ، ولا بين طبقة وطبقة .

وينبغى كذلك أن يكون فى هذا الدين الجديد مقنع للممتاز الميسر لاشواق الروح ، وان يكون فيه كذلك لصاحب الدنيا ملحظ يلفته الى آفاق الروح ، وأن ثمة ارتباطا بينها وبين السعى فى سبيل الدنيا ، فيجد لهذا السعى مددا من عليين لا يحقر فى عينيه مطالب الحياة ، ويجعل فى قلبه موئلا للشعور بالرضى والكرامة ،

لأنه استطاع أن يكون صالحا وهو من أهل هـذا العالم المعنيين بأموره ومهامه ومطالبه .

لن تكون الحياة الدنيا فى هذا الدين الجديد رجسا ، بل هى من منن الله وطيبات نعمائه . فالله صاحب الدنيا كما هو صاحب الآخرة . وهو سبحانه خالق الحس بما يفرضه من دوافع الحياة ومطالبها . وهو فاطر طلبها فى النفس ... وانما هى الحدودالشرعية يفرضها الله فى دينه فاذا السعى فى سـبيل الدنيا على سنن تلك الحدود وقد أمسى تحصيلا للمثوبة فى الآخرة بالطاعة والاحسان.

وللمفكر والمؤمن معا فى الدين الجديد مكان . أولهما ينبغىأن ينتهى الى ما ينتهى اليه الآخر ، لان الحق واحد فى جميع السرائر والضمائر متى أحسنت التلمس والاهتداء .

وهكذا لا بد أن يكون الدين الجديد عقيدة تصلح للكافة . العامة منهم والخاصة ، يشعر كل منهم أن له عقيدة يطمئن اليها ، وأن هذه العقيدة رباطه بالدنيا ، وبالآخرة . بالله والانسـان ، فالناس أمة واحدة فى هذا الدين الجديد ..

هذا الدين المرموق هو دين البشر ...

وكان الاسلام هو الذى انبرى للنهوض برسالة هذا الدين ..

وسنرى كيف نهض الاسلام بهذه الرسالة التى لبت حاجة البشر الطبيعية فى ذلك الطور المعين من أطوار الاعتقاد ...

الله

لا يدع القرآن شائبة من ريب فى مسألة وحدانية الله ، فجاء فى (سورة الاخلاص) :

« قل هو الله احد ، الله الصمد »

ولا فى تنزيهه عن الشرك والتعدد :

« لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » .

وفى ذلك نقض لعقائد الشرك ، وتصحيح لعقائد أهل الكتاب أيضا ... فقد صار أتباع المسيح الى القول بألوهيته . وأنه ابن الله . وان الاله الواحد ، جوهر واحد ، له ثلاثة أقانيم :

الله الآب ، والله الابن — وهو المسـيح — والروح القدس . وشبهوا ذلك السر الايمانى المسيحى بالشمس ، وكيف أنها حقيقة واحدة ، تقع على الحواس قرصا ، ونورا ، وحرارة ..

ولم يرد على لسان المسيح فى أقواله الواردةفىبشاراتحوارييه (الأناجيل) اشارة الى شىء من ذلك . بل كان يدعو نفسه على الدوام « بابن الانسان » .

وأما البنوة لله عز وجل ، فما ورد لها ذكر الا على سبيل المجاز المطلق ، وبمعنى يشمل البشر كافة ، حين أوصى أن تكون صلاة الناس الى الله بادئة بقولهم « يا أبانا الذى فى السماء » .. وحين طالب أتباعه وجميع الناس أن يسلكوا طريق البر كى يكونوا جديرين بنسبتهم الى الله . فالمسيح رفع خصوصية البر عن اليهود

الذين قالوا ان ابنـاء ابراهيم وحدهم هم الناجـون الظافرون برضوان الله ، لأن الناس كافة أبناء الله ما سلكوا طريق البر ، وأحبوا الله ، وأحبوا اخوانهم فى الله ، حتى أعداءهم .

بل ان المسيح وعظ الناس فضرب لهم المثل برعاية الله وعنايته، بما يتيحه من الرزق لطيور السماء ووحش الفلاة . وما يتيحه من الزينة لزنابق الحقل ، فلا ينبغى ان يكون حرصـهم كله على مال الدنيا وقوتها وجاهها وزخرفها ... وما أقرب هذا أن يجعل رعاية الأبوة مطلقة شاملة لجميع الكائنات ، وما أبعد هذا أن يكون ذلك « السر » أو « اللغز » المعقد الذى اختلفت فيه أقـوال المفسرين من أساطين الكهان وعلماء اللاهوت .

وقد أدى هذا اللبس الى فتنة بل فتن بين صفوف أتباع المسيح والمنتسبين اليه . وجمعت المجامع ، ووفعت المذابح . وصار الايمان سبيلا الى اللدد والفرقة ، لا الى الألفة واجتماع العقول والقلوب على عقيدة يطمئن الجميع اليهـا .

وناهيك بعقيدة لبابها المحبة حتى للاعداء، تكون مثار ذلك كله.

وناهيك بعقول السواد ممن غبرت لهم فى الوثنية جذور عقلية وحسية منذ ألوف السنين ، كيف لا تنزلق الى الشرك من باب هذا « السر » الذى يجعل من الواحد الفرد ثلاثة أقانيم !

لا بد من رد الناس الى بساطة الاعتقاد ، ولا بد من نفى اللبس وشوائب الريب عن جوهر هذه العقيدة ، وهو التوحيد مطلق التوحيد .

اذن تعين أن يأتى الدين الجديد بحسم هذا الاختلاف الوبيل:

« قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » ...

لم يلد ولم يولد . فأقرب الى العقل أن من يلد أحـرى بأن يولد ... وما كان سبحانه فردا فى جنس وواحدا فى سـلالة من نوعه . حاشا ! بل جل عن النظراء والأكفاء . فمن ذا الكفء لله ؟..

وقد بلغت مقالة اللام لارسطو فى تنزيه اللهقريبا منذلكالشأو، فالمحرك الأول عند المعلم الأول كائن كامل كمالا مطلقا ، لا والد له ولا ولد ، ولا أكفاء له . ولكنه لا ينزل الى تعقل شيء غير ذاته الكاملة ، لان ذاته هى الموضوع الوحيد الجدير بسموه وكماله. وما كانت به حاجة الى خلق العالم وتدبيره . بل كانت المادة قائمة منذ الأزل ، وانما نظامها من قبيل اجتهاد المادة فى محاكاة كمال الله وجماله ، فيتفق لها من ذلك أقصى انتظام ممكن فى حركاتها الفلكية الدائرية .

كلام فيلسوف لا يعقله أو يخوض فيه الا فلاسفة . والدين لسواد الناس . وما كان الدين للمجادلة الذهنية . وانما هو نبراس الهداية للكافة ، يخاطب العقل فى مستوى البداهة الفطرية التى تستغنى عن التعقيد ، وان لم يغلق باب التعمق أو التحليق لمن شاء ، على بصيرته ...

وكان لا بد للدين أن يثبت قلوب الناس بالطمأنينة الى عناية اللهبالخلق ، والى قدرته ، والى سلطانه المطلق على الكون كله. فقرر القرآن فى عزم وحسم أن الله « خالق كل شىء » . « وكان الله على كل شىء قديرا » .

هو الخالق ، وهو المدبر القادر . ولم يخلق الكون ثم نفض منه يده . « الا انه بكل شيء محيط » ...

ولا يدع القرآن فى ذلك شكا ، فهو يقرر ويكرر فى أكثر من موضع تلك الحقيقة الجوهرية ، التى تقر سلطان الله على الخلق ، وتدعوهم للطمأنينة الى عنايته ، والحرص على رضوانه ، فجاء فى سورة الحديد :

«هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم».

وجاء فى سورة الاعراف :

« وسع ربنا كل شيء علما » . وأيضا « ألا له الخلق والأمر »

وجاء فى سورة يونس :

« ولا يعزب عنه مثقال ذرة »

وجاء فى سورة يس :

« وهو بكل خلق عليم »

وجاء فى سورة فاطر أنه سبحانه :

« عليم بذات الصدور » .

وجاء فى سورة المؤمنون :

« ما كنا عن الخلق غافلين » .

وجاء فى سورة غافر :

« يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور »

• • •

وهكذا بدت العقيدة الالهية فى الاسلام ناصعة الصفاء فى تجردها من الشرك وشبهاته ، ومن النقص وشوائبه على نحو

حاسم كانت البشرية قد باتت فى حاجة ماسة اليه بعد الذى انتاب المؤمنين بالأديان من اختلاف وبلبلة .

وأما والمسألة مسألة ايمان ، فمن آمن بعقيدة تنزه الله عن كل مشابهة بالخلق ، وعن كل تعدد تجسم أو استدق ، أقرب الى طمأنينة العقل والنفس ممن يروضها على الايمان باله واحد ولكنه يحتال على تصور وحدانيته رغم اقانيمه المتعددة . ويحار فى وجه حاجته سبحانه الى تعدد الاقانيم ، وقد كانت لعباده غنية عن تلك الحيرة بتمام التوحيد ، فيغلق الباب دون كل تساؤل وكل ابهام...

أما صفاته سبحانه فلا يدركها الحصر ، وانما يتجلى للناس منها ما يعنيهم وعلى قدر ادراكهم .

وأول ما يجبه الناس أمر المحيا والممات ، فالله هو :

الحى الذى لا يموت	(سورة الفرقان)
وهو الذى يحيى ويميت	(سورة المؤمنون)
كل شىء هالك الا وجهه	(سورة القصص)

وتتواكب آلاء الله على عباده . فهو الرازق الوهاب خالق مافى الارحام . العليم الحكيم البصير المنتقم ذو الجلال ...

وقد كانت لبنى اسرائيل تصورات مفزعة عن آلاء الله ، تكاد تنفى الطمأنينة وتبعث الهول . وما دين بغير طمأنينة يستقيم بها أمر الناس فى حقهم من الدنيا والآخرة ؟

ان كل سورة يفتتحها القرآن باسم الله « الرحمن الرحيم » ... لا يكتفى من هاتين الصفتين بواحدة دون الاخرى ... ويقول فى (سورة فصلت) :

« وما ربك بظلام للعبيد » .

ولا يجرى ذكر العذاب الا ويطمئن الناس الى العدل والى الاعذار فهو اذ يقول فى سورة البروج :

« ان بطش ربك لشديد »

يردفها بقوله :

« وهو الغفور الودود »

وجاء فى سورة الاسراء :

« وماكنا معذبين حتى نبعث رسولاً »

ولئن كان أقوام مؤمنون ان الله ينتقم من الاحفاد لآثام أجدادهم الغابرين ، وأن حصرم الآباء يضرس به البنون ... فالقرآن قاطع فى نفى هذا الجور المستعصى على الفهم فيقول فى (سورة فاطر) :

« ولا تزر وازرة وزر أخرى »

ويقــول فى البقرة :

« تلك أمة قد خلت لها ماكسبت ولكم ماكسبتم . ولا تسألون عما كانوا يعملون » .

وهو توضيح أو تصحيح كان لا محيص عنه ، والا وجد العقل البشرى فى سنن الله ثلمات تزعجه وتصده عن الايمان والتسليم ..

وكأنما بقيت بعد تلك الصفات وقفة قد يقفها عقل البشر الذين درجوا ألوف السنين على التجسيم وهو تصور كل شىء فى صورة الجسم الذى له موضع محدد وأين معين .

ويأتى القرآن بالجواب ، حاسما قاطعا لكل شك :

« ولله المشرق والمغرب . فاينما تولوا فثم وجه الله »

«لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار . وهو اللطيف الخبير» (الانعام)

« واذا سألك عبادى عنى ، فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان . فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » (البقرة)

« ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » (سورة ق)

ويحار البشر . فيقضى على تلك الحيرة بذلك القول الفصل :

« ليس كمثله شىء » .

عقيدة واحدة بسيطة ، يقطع الايمان بها الطريق على كل حيرة وخوف ، ويبعث الطمأنينة فى كل نفس .

وباب هـذه العقيدة مفتوح لكل انسان ، لايصد عنها أحد بسبب جنسه أو لونه .

« قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والارض » . (الاعراف)

« ياايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . ان أكرمكم عند الله أتقاكم . ان الله عليم خبير » (الحجرات)

وهكذا يجد كل انسان له مكانا فى ظل هذه العقيدة الالهية . على أساس من المساواة العادلة ، التى لاتفاضل معها الا بالتقوى ، تقوى الله « رب العالمين » ...

الإنسان

أما الانسان ، فوقف بعد اليهودية والمسيحية موقفا لا يحسد عليه كثيرا ، بسبب ما التصق به من وزر أبيه الأول آدم ، ذلك الوزر الذى اعتبر خطيئة أولى ، وخطيئة باقية موروثة ، لابد لها من كفارة وفداء حتى لا يذهب بحريرتها أبناء الجنس البشرى كافة.

وان أنس لا أنس ما ركبنى صغيرا من الفزع والهول من جراء تلك الخطيئة الأولى ، وما سيقت فيه من سياق مروع ، يقترن بوصف جهنم ذلك الوصف المثير لمخيلة الأطفال . وكيف تتجدد فيها الجلود كلما اكلتها النيران ، جزاء وفاقا على خطيئة آدم ، بايعاز من حواء .. وأنه لولا النجاة على يد المسيح ، الذى فدى البشر بدمه الطهور ، لكان مصير البشرية كلها الهلاك المبين .

وان انس لا أنس القلق الذى ساورنى وشغل خاطرى عن ملايين البشر قبل المسيح ، أين هم ؟ وما ذنبهم حتى يهلكوا بغير فرصة للنجاة !..

فكان لابد من عقيدة ترفع عن كاهل البشر هذه اللعنة، وتطمئنهم الى العدالة التى لا تأخذ البرىء بالمجرم ، أو تزر الولد بوزر الوالد ، وتجعل للبشرية كرامة مصونة .

ويحسم القرآن هذا الأمر ، حين يتعرض لقصة آدم ، وما تروى فيه من أكل الثمرة المحرمة فيقول فى سورة طه :

« وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » ..

ويقول فى سورة البقرة :

« فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، انه هو التواب الرحيم»

وآدم ، ابو البشرية ، كرمه الله فخلقه على صورته ، وفضله على الملائكة ، وقد جاء فى سورة البقرة :

« واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا »

ذلك أن الانسان قادر على الخير والشر ، وليس كالملائكةالتى لا قدرة لها الا على الخير ، فله عليها فضل الارادة لما يأتيه من الصالحات .

أما بنو آدم ، فتقول سورة الاسراء :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »

ويخاطب الناس فى سورة الحج بأن :

« سخر لكم ما فى الأرض »

وفى سورة لقمان أن :

« سخر لكم ما فى السموات »

ان المسئولية هى أساس الكرامة الانسانية ، وأساس كل حرية ، وكل أخلاق ممكنة . وهذا ما قطع به الاسلام ، ووضع به الحجر الأساسى لكرامة بنى آدم . فيقول فى سورة النجم :

« وأن ليس للانسان الا ما سعى . وان سعيه سوف يرى » .

ويقول فى أكثر من سورة ، على سبيل التأكيد « ولا تزر وازرة وزر أخرى » . وهو القائل فى سورة التين .

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » .

هذه المسئولية هى التى يسميها القرآن الأمانة . تلك الأمانة التى جاء فى سورة الأحزاب :

« انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان » ..

ثم نجد فى سورة الاسراء :

« وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه » ..

والحق أنه لايمكن أن يقدر قيمة عقيدة خالية من أعباء الخطيئة الأولى الموروثة الا من نشأ فى ظل تلك الفكرة القاتمة ، التى تصبغ بصبغة الخجل والتأثم كل أفعال المرء ، فيمضى فى حياته مضى المريب المتردد ، ولا يقبل عليها اقبال الواثق ، بسبب ما أنقض ظهره من الوزر الموروث .

ان تلك الفكرة القاسية تسمم ينابيع الحياة كلها . ورفعها عن كاهل الانسان منة عظمى ، بمثابة نفخ نسمة حياة جديدة فيه . بل هو ولادة جديدة حقا ورد اعتبار لا شك فيه ، انه تمزيق صحيفة السوابق ، ووضع زمام كل انسان بيد نفسه .

والناس فى كرامة البشرية أمة واحدة ، بغير تفريق ، فقد جاء فى سورة الأنبياء :

« ان هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »

وجاء فى سورة الحجرات :

« يا أيها الناس ! انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

أجل ! لا عصبية ولا شعوبية ولا فروق من حيث اللون أو

اللغة . وهذه سورة الروم تقول :

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون .. ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، ان فى ذلك لآيات للعالمين » .

وهكذا صار الناس سواسية كأسنان المشط ، أكرمهم عند الله أتقاهم . ثم « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (سورة المجادلة) و « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » (سورة الزمر) .

ألا من له أذنان للسمع فليسمع !

• • •

وان من كرامة الانسان الكريم على نفسه أن يتبع الحق، ويجهر به ويحتمل فى سبيل ذلك من العذاب ما يصيبه بنفس راضية .. وعلى المؤمنين أن يتواصوا بالصبر كلما تواصوا بالحق . أو كما جاء فى سورة العصر :

« ان الانسان لفى خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »

وأن الغلبة للحق فى نهاية المطاف على كل حال :

« بل نقذف الحق على الباطل فيدمغه ، فاذا هو زاهق » (سورة الأنبياء) .. « وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » (سورة الاسراء) .

أجل ! وينبغى أن يقر الانسان الكريم بالحق ولو على نفسه وآله الأقربين ، كما ورد فى سورة النساء :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

ان الحق مقدس ، ولو كان فيه نصرة عدو أو مغنم له ، فذلك هو لباب التقوى . فقد جاء فى سورة المائدة :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون .. »

ثم جاء فى ختامها « هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا . رضى الله عنهم ورضوا عنه . ذلك هو الفوز العظيم » .

وتشيد سورة الفرقان بالصادقين : « والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما » .

وان الانسان الكريم العزيز بايمانه لصبور على المكاره ان أوذى فى سبيل الحق :

« يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين » (سورة البقرة) .

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » (سورة آل عمران) .

« ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون » (سورة ابراهيم) .

هى الشجاعة فى الحق ، والشهادة لله ، والصبر على الايذاء فى سبيل الحق ، انها لصفات الانسان الكريم على نفسه حقا . ولكنها

لا تتم روعة الا بالخشوع للرحمن :

« لا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين .. واستعينوا بالصبر والصلاة ، وانها لكبيرة الا على الخاشعين ، الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون » (سوزرة البقرة) .

« ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك . واخفض من صوتك ، ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » (سورة لقمان) .

« كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » (سورة غافر)

« انه لا يحب المستكبرين » (سورة النمل)

وأشهد كم تميعت نفسى وغثيت كلما رأيت عتلا من المستكبرين ، غرهم من الدنيا ظل من السلطان . وما دروا بغفلتهم ان السلطة فى ذاتها ليست شيئا ، وان الولاية على الناس جذوة من النار . أما الشئ حقا ، فهو رعاية الله فى حقوق الناس ، واستخدام السلطان للخير والعدل فى غيرة على الحق ، وحماسة لنصرته ، وابتغاء لوجه الله لا يعرفه الا الخاشعون .. وأكاد أقذف فى وجه القوم من هؤلاء بما جاء فى سورة الاسراء :

« ولا تمش فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها » ..

ولا تتم صورة الانسان الكريم الغيور على الحق ، الصادق فى القول ، الصابر فى الهول ، الخاشع للرحمن ، الا بأن يكون صادق الوعد ، موفيا بالعهد والعقد :

• « واوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا » (سورة الاسراء)

• « يا أيها الذين آمنوا اوفوا بالعقود » (سورة المائدة)

• « واوفوبعهد اللهاذا عاهدتمولا تنقضوا الايمان بعدتوكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا . ان اللهيعلم ما تفعلون» (سورةالنحل)

• وما من خلة أزرى بالانسان الكريم من النفاق ، وقد أنحى عليه القرآن انحاء عنيفا :

• « ان المنافقين يخـــدعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى . يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا. مذبذبين بين ذلك ، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء .. ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا » (سورة النساء)

« يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » (سورة آل عمران)

فالانسان الكريم حقا لا ينافق ، ولا يخشى فى الحق شيئا،ينصر الله ، والله ناصره . ذلك جوهر ايمانه . وانه بذلك لعزيز المكان فى الدنيا والآخرة ، لا يسعى فى دنياه سعى الغريب الذليل :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبكمن الدنيا» (سورة القصص)

• وهكذا يكون الانسان متكامل الجوانب لا يشكو فصام الروح والجسد ، ذلك الفصام ، الذى عانى منه الكثيرون . ولا يعرف (الفصم) الا من يكابده .

وبهذا يكون الانسان سيد الأرض حقا ، لا ينظر الى طيباتها نظرة الحسير ، ولا يمشى فى جنباتها مشية الأسير ، ولا يثقل كاهله الخزى من نوازعه ، وفى يده زمام نفسه ، وقد أحل له ما لم يرد فيه تحريم ، تقر به عينه فى غير حرج ولا غضاضة .

النبوة

لا تأليه ولا شبهة تأليه فى معنى النبوة الاسلامية . وهى مسألة كانت تحتاج الى توضيح وحسم ، وقد درجت شعوب الأرض على تأليه الملوك والأبطال والأجداد ، فكان الرسل أيضا معرضين لمثل ذلك الربط بينهم وبين الألوهية بسبب من الأسباب ، أو بنسب من الأنساب . فما أقرب الناس لو تركوا لأنفسهم أن يعتقدوا فى الرسول أو النبى انه ليس بشرا كسائر البشر ، وأن له صفة من صفات الألوهية على نحو من الأنحاء .

ولذا نجد توكيد هذا التنبيه متواترا مكررا فى آيات القرآن . نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ، ما جاء فى سورة الكهف :

« قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى .. »

وفى تخير كلمة « مثلكم » معنى مقصود به التسوية المطلقة ، والحيلولة دون الارتفاع بفكرة النبوة أو الرسالة فوق مستوى البشرية بحال من الأحوال .

بل نجد ما هو أصرح من هذا المعنى فيما جاء بسورة الشورى :

« فان أعرضوا عنك ، فما أرسلناك عليهم حفيظا . ان عليك الا البلاغ ! »

وظاهر فى هذه الآية تعمد تنبيه الرسول نفسه الى حقيقة مهمته ، وحدود رسالته التى كلف بها ، وليس له أن يعدوها ، كما أنه ليس للناس أن يرفعوه فوقها .

بل كأنما احتاج هذا التنبيه الى مزيد من الصراحة ، فجاء فى (سورة ق) :

« وما أنت عليهم بجبار »

ومن هذا القبيل أو أبين منه وأصرح ما ورد فى سورة الغاشية :

« ما أنت الا مذكر . لست عليهم بمسيطر »

• • •

رسول بشر . ما عليه الا البلاغ بما يوحى اليه من ربه .. ولا زيادة ..

وتوكيد القيمة البشرية بحدودها للرسول ليس بلفظ الآيات فحسب ، بل هو معنى تنطق به كيمية الرسالة كلها ، وتاريخ الرسول كله .

ان رسول الاسلام هو أول رسول بعث الى الناس وانبرى لدعوتهم الى دينه من غير مدد من المعجزات الخاطفة للأبصار الخالبة للألباب . فقد أريد للناس أن يشعروا أن رسولهم «مثلهم» حقا وصدقا كما جاء فى سورة الكهف . لا يملك من الخوارق أكثر مما يملكون . وليس له من سلطان عليهم . وانما الأمر اليهم ، كى يكون اهتداؤهم نابعا من قدواتهم البشرية ، وعن اقتناعهم الذاتى ، بغير تأثير غريب عن معدن العقل والضمير .. فيكون اهتداؤهم ايمانا ليست فيه شائبة استهواء أو توريط أو اقتناص بوسائل هى بالسحرة أشبه ، والى وسائلهم أقرب ..

وما توانى العرب عن مطالبته باخراج ماظنوه فى جعبة كل صاحب نبوة ، وما أرادوا بذلك الا الملهاة :

« ويقولون لولا انزل عليه آية من ربه فقل انما الغيب لله »
(سورة يونس)

« وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الا هو » (الانعام)

« قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا ، الا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير . وما مسنى السوء . ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (سورة الاعراف)

ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء..

حقا ! وما أكثر ما أوذى ، وما أشد ما اساؤا اليه به وهولا يملك لذلك دفعا ، الا الصبر على البلاء ..

حقا ! بل وتخطف الموت فلذات أكباده .. ليكون ذلك ايذانا أن البشر الرسول ليس له امتياز على سائر بنى آدم . فتسقط دعوى الناس فى التقصير عن الاهتداء به . فلو كان يجرى عليه غير الذى يجرى على البشر ، لكانت لبعضهم الحجة بأن استطاعتهم دون استطاعة هذا الرسول ، فأين هم منه ؟ وكيف يكلفون بما لاطاقة لهم به ؟..

بل هو « مثلكم » لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا . ويمسه السوء . والثكل مرة بعد مرة .. ففيه قدوة سوية واسوة عادلة لكل من نشد الاهتداء والاقتداء .

وفى يقينى أن تأييد دعوة حق بخارقة غير طبيعية مسألة لا تستساغ الا فى حالات انحطاط العقل البشرى . فهذا أشبه بالاحتيال على الطفل ليقبل على الطعام الذى يقيم أوده . وهو حرى أن يطلبه ويلح فى طلبه لو أوتى الرشد .

كذلك العقل السوى يجد امتهانا له أن يحتل عليه صاحب دعوى بخارقة لا علاقة لها بصدق تلك الدعوى . فان كل دعوى صادقة أو كاذبة لذاتها لا لأمر خارج عنها . فالحقيقة آية نفسها ولا مراء فى ذلك .

ولا شك أن احياء ميت أو ابصار أعمى أو غير ذلك من جلائل الأحداث لها قيمتها فى حد ذاتها . ولكنها بغير قيمة اطلاقا اذا أريد بها اثبات أن ٢ + ٢ = ٩ أو ما الى ذلك من المسائل العقلية ..

لهذا كان لابد للعقل البشرى فى طور رشده أن تأتيه الدعوة الى الهداية بأسلوب عقلى صرف ، يحترم فطرته وبداهته .

وتلك قرينة أخرى على أن دعوة الاسلام جاءت موافقة للطور الطبيعى للبشرية تاريخا ، ونضوجا ، ورشدا .

وكان القرآن يؤكد على الدوام أن الرسول ليس ساحرا ولا كاهنا ولا مجنونا ممن بهم لوثات الصرع .. وينبه الى أن المعجزة الخارقة لا تفيد فى اقناع مكابر ، وفى ذلك ما جاء بسورةالحجر:

« وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون . كذلك نسلكه فى رقاب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين . ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون » .

ومن أنعم النظر فى هذه الآيات من سورة الاسراء يجد فيها حكمة الاصرار على بشرية الرسول ، وأن آيته الوحيدة هى صدق رسالته . وذلك حسبها من سند ، وحسب الناس لو كانوا مهتدين غير مكابرين . فما شاء الرحمن أن يكون الرسول ملكا

من الملائكة ، حتى تكون بشرية هذا الرسول حجة على الناس وقدوة :

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا فى الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا وتأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قل سبحان ربى ! هل كنت الا بشرا رسولا . وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا ان قالوا أبعث الله بشرا رسولا . قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا . قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم انه كان بعباده خبيرا بصيرا » .

• • •

ولا أملك نفسى من الاعجاب أن أورد هنا ما قاله الامام محمد عبده فى مفتتح كتابه « الاسلام والنصرانية »

« فالاسلام فى هذه الدعوة لايعتمد على شيء سوى الدليل العقلى والفكر الانسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى . فلا يدهشك بخارق العادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة . ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة الهية .

« وقد اتفق المسلمون الا قليلا ممن لا يعتد برأيهم فيه ، على أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات . وانه لايمكن الايمان بالله . فلا يصح أن يؤخذ الايمان بالله من كلام الرسل ولا من

الكتب المنزلة . فانه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله الا اذا صدقت قبل ذلك بوجود الله ، وبأنه يجوز ان ينزل كتابا أو يرسل رسولا » .

رحم الله الأستاذ الامام .

• • •

ان الحقيقة باقية والبشر زائلون .

الرسالة اذن هى الباقية ، وما هى بمتوقفة فى شىء على بقاء هذا الرسول :

« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفئن مات او قتل انقلبتم على أعقابكم ؟.. »

انها لحقيقة . ولكن كان لابد من تقريرها لتوكيد بشرية هذا الرسول .. وليس أدل على لزوم هذا الاحتياط من افتتان الناس برسولهم وجنوحهم الى الخروج عن مستوى البشر الفانين ، من أن اماما مثل عمر بن الخطاب ، على رجاحة عقله ، وقوة ايمانه ، وهو من هو من الاسلام ورسوله ، أبى أن يصدق أن الرسول نزل به طائف الموت .. ولولا أن أبا قحافة تلا عليه وعلى الناس تلك الآية لقطع عمـــر أيدى رجال وأرجلهم زعموا ان رســـول الله قد مات !

« أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ »

كان من الجائز أيضا أن يقتل بيد عدو من أعداء دعوته وما أكثرهم . وما كان ذلك لينفى شيئا أو يثبته . فان الحق حق لذاته . ودعوة الاسلام صادقة لذاتها . عاش الرسول أو مات أو قتل .

هذا اذن هو مكان النبوة فى ذلك الطور الأخير من أطوار العقيدة الالهية .. يتنزه الله فى تلك العقيدة عن أساليب جوبيتر وأشباه جوبيتر . وليس انبياؤه كهانا ولا ملائكة ولا سحرة ولا منجمين .. وانما هم بشر يأتيهم الوحى من الروح الأمين .. وليس عليهم الا البلاغ المبين .

ولكن هل تتكرر تلك النبوة على ذلك الأسلوب ؟

لا حاجة للبشرية بذلك التكرير . فان طور الأسلوب العقلى المجرد هو آخر أطوار البشرية . ومن تفتح عقله ، وبلغ رشده ، فطائره فى عنقه ، وعليه بعد ذلك أن يعمل فكره ، وقد تسلم قياد نفسه .

للرسالة خصوصية هى اتمام ما سبق ، ومتابعة البشر فى أطوار نضجهم بما يناسبهم من الهداية والصلاح . فما هى الخصوصية التى يمكن أن تكون موضوع رسالة جديدة بعد رسالة الاسلام ؟

لقد تمت فكرة التوحيد . وتم خطاب العقل . وتم البلاغ الى الناس كافة ، احمرهم واسودهم . وتمت كرامة الانسان وصلته بربه ، وبدنياه . وتركت لهم مصالحهم المرسلة يعالجونها على ذلك الأساس حسبما يستجد لهم من الأمور . فكل رسالة بعد ذلك قول معاد ، ليس فيه جديد يستفاد .

« اليوم أتممت عليكم نعمتى .. »

وبسبب من طبيعة الرسالة ، ومن الحاجة الطبيعية للناس اليها ، كان من الطبيعى أن يكون هذا الرسول خاتم الرسل ، لأن رسالته كانت خاتم الرسالات .

حـــواء

المرأة فى الاسلام انسان له كل حقوق الانسان وكل تكاليفه العقلية والروحية . فهى فى ذلك صنو الرجل . تقع عليها أعبـاء الأمانة التى تقع عليه .. أمانة العقيدة والايمان وتزكية النفس ، فجاء فى سورة الأحزاب :

« ان المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات : أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما »

وقد نجد هذا اليوم من بدائه الأمور . ولكنه لم يكن كذلك فى العالم القديم ، فى كثير من الأمم حيث كانت المرأة تباع أحيانا كثيرة كما تباع السلعة . يبيعها أبوها أو رأس عشيرتها أو زوجها . وكانت فى كثير من الأحوال منقوصة الأهلية لا تمارس التصرفات المالية والقانونية الا عن طريق وليها الشرعى أو بموافقته . بل لم تكن تملك تزويج نفسها على الخصوص . وانما الأمر فى ذلك لوليها يجريه على هواه .

وأكثر من هذا ، كانت بعض قبائل العرب فى الجاهلية تئد البنات كراهة لهن وازدراء لشـــأنهن ، ومن لم يئـــدهن كان يضيق بهن ضيقا شديدا :

« واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهـو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به : أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون » (سورة النحل)

وفى هذه السورة عينها اشارة الى المساواة عند الله بين الذكر والأنثى بغير تفريق فى التكليف أو الجزاء :

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حيـاة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »

وفى سورة النساء اشارة صريحة الى مساواة المرأة والرجـل فى ثمرات الأعمال والجهود :

« للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن »

وفى بعض الأمم الحديثة ، وفى الأمم القديمة ، كانت المرأة تحرم غالبا من الميراث ، فأبى الاسلام هذا الغبن الفاحش ، ونص على ذلك فى سورة النساء :

« للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الولدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا »

وهذا النصيب المفروض : « للذكر مثل حظ الأنثيين » باعتبار أن نفقات المرأة تقع على عائلها من الذكور بالغاً ما بلغ ثراؤها . أما الذكر فهو عائل أهل بيته من أولاد ونساء . فأعباؤه المالية أبهظ من المرأة بكثير . وهذه القسمة اذن أقرب الى مجاملة المرأة فى شئون الأموال الموروثة ..

• • •

ولا يخوض انسان فى موضوع المرأة فى الاسلام من غير أن

تخطر بباله قضية تحرير المرأة فى هذا العصر ، ومساواتها بالرجال.
ويخطر على البال حتما قول القرآن فى سورة النساء :
« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » .
وما جاء فى سورة البقرة :
« ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » .
فانها تبدو لأول وهلة هابطة بالمرأة الى « درجة » دون درجة الرجل . وفى هذا ما فيه من بواعث التساؤل ، فى زمن استفحلت فيه قضية المساواة بين الجنسين وتقررت فى جميع الأمم الآخذة من الحضارة بنصيب .
وهنا لابد من الرجوع الى مسوغ هذا التفاوت أو التفضيل وليس كل تفضيل جورا . بل انه متى كان التفضيل لفضل ثابت ، فهو العدل الصراح .
وليس المفروض أن يكون هذا الفضل مطلقا بغير قيد أو شرط لجنس معين من الجنسين ، بل ان التفضيل ـ عقلا ـ لايصح الا بحصول الفضل وتحققه . يرتفع بارتفاعه ، وبوضع يوضعه ، ويتحول بتحوله .
فما الفضل المشاهد للرجل على المرأة ؟..
انه حاميها . وانه عائلها . وانها تركن اليه وتلوذ به . وانه أعلم منها وأبصر بأمور الدين أو أمور الدنيا . وأنه أحظى منها بنصيب من المواهب أو القدرات .
ولم يرد ذكر القوامة على النساء على اطلاقها للذكورة بغير بينة

بل قيل :

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » .

فهناك اذن وجهان لحصول تلك القوامة : هو إرباء الفضل . والاعالة او النفقة المالية .

وشق الإعالة أو النفقة قد تجد له المرأة حلا فى نزولها الى ميدان الأعمال ، وقيامها على أمر معيشتها كالرجل أو أكثر منه وأحجى.

وأما ارباء الفضل ، فهو رهن باصابة نصيب من التعليم ، أو البراعة فى فن من الفنون، أو رجاحة العقل ونباهة الذكر . وهى مقررات الفضل بنص القرآن . فقد جاء فى سورة المجادلة :

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »

ولا يغيبن عن البال ورود « درجات » بصيغة الجمع ، وقد وردت فى سورة البقرة عند التعرض للمرأة والرجل بصيغة المفرد :

« وللرجال عليهن درجة » .

وجاء فى سورة الزمر :

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

وجاء فى سورة النساء :

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » .

ان العلم يرفع صاحبه على من لا علم له ، فالعالم خير من الجاهل والجاهلة . والعالمة خير من الجاهلة والجاهل .

والمؤمن خير من الكافر والكافرة . والمؤمنة خير من الكافرة

والكافرة .

والمجاهد فى سبيل الله بأمواله ونفسه خير من القاعد عن الجهاد والقاعدة . والمجاهدة فى سبيل الله بأموالها ونفسها خير من القاعدة عن الجهاد والقاعد .

لا تفضيل بغير فضل ، ولا تشريف بغير تكليف ، وانما كان العرف جاريا بانحباس المرأة عن هذه المجالات ، ومتى زال هذا العائق ، وارتفع عنها القصور أو التقصير ، فهى حقيقة بثمرات فضلها وقيامها بتلك التكاليف الجسام .

ولا أعتقد أن الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس يكون بالحرب والفتح فحسب ، بل وبكل عمل صالح لخير عباد الله بنشر العلم أو رفع المرض أو هداية الناس الى ما تصح به نفوسهم وييسرون به للخير ومرضاة ربهم فى أمور دينهم ودنياهم .

فليس الاسلام ــ على حقيقته ــ عقيدة رجعية تفرق بين الجنسين فى القيمة . بل ان المرأة فى موازينه تقف مع الرجل على قدم المساواة . لا يفضلها الا بفضل ، ولا يحبس عنها التفضيل متى حصل لها ذلك الفضل بعينه فى غير مطل أو مراء .

وذلك حسب عقيدة لتكون صالحة لكل طور اجتماعى على تعاقب الأطوار والعصور ، على سنة العدل التى لم يجد لها عصرنا اسما أوفق من « تكافؤ الفرص » ، الذى يلغى كل تفريق ، ويسقط كل حجة ، ويقضى على كل تمييز الا بامتياز ثابت صحيح.

الـزواج

الزوجة الواحدة أو الزوجات الكثيرات .

هذا هو لباب ما يثور حول موضوع الزواج فى دين الاسلام . فلابد من وقفة ها هنا لنتبين الحقيقة فى هذا .

من المسلم به أن الدين لا يقصد به مستوى من البشر دون مستوى ، ولا عصرا من العصور دون سائرها ، ولا بيئة من البيئات بعينها . وانما يراد به التشريع للكافة وتنظيم حياة البشر من حيث هم كذلك ، مع مراعاة فطرتهم السوية .. ولكن مع الاشارة الى ما فوق ذلك من درجات السمو التى لا يبلغ اليها الا الخاصة وأولو العزم من الناس .

وعلاقة المساكنة بين الذكر والأنثى هى أساس الأسرة . وهى تنبعث من غريزة طبيعية ينظمها التشريع أو العرف الاجتماعى ما وسعه التنظيم ، عسى أن يضع حدودا لتلك القوة الحيوية العارمة ترتفع بالانسان فوق مستوى البهيم .

وما من شك فى أن نظام الزوجة الواحدة الدائمة نظام مثالى . ومن البديهى أيضا ألا يطيقه الا المثاليون . وخاصة ذوى العزم . وما لهؤلاء فحسب جعلت هداية الدين .

ونظرة الى واقع الحياة البشرية فى تاريخ مجتمعاتها الغابرة والحاضرة ، تطلعنا على تعدد النساء فى حياة الرجل الواحد ، سواء جهرا أو سرا ، وسواء برخصة من القانون أو الدين ، أو حتف

القانون والعقيدة .

وما من عاقل يفضل التعدد بغير رخصة على التعدد برخصة ، فان أثر الشعور بالاثم والاختلاس على السلوك البشرى بعامة أثر خبيث يسمم حلاوته ويعكر صفاءه الذى لا تتقوم السعادة الروحية والنفسية بغيره .. فضلا عما فى العلاقات المختلسة من اضرار بالمرأة وافساد لحياتها لا حيلة فيه .

ثم ان حياة البداوة والريف غير حياة الحضر . ففى الريف والبادية يعز القوت أحيانا ولا سيما على المرأة . وقد يكون فى عدد النساء زيادة عن عدد الرجال . فلا يصان عرض المرأة ولا تستقر معيشتها مادياً ونفسياً الا اذا صارت فى كنف رجل . وعندئذ لا حيلة فى التعدد ، لأنه الحل السليم الوحيد ، أو هو أسلم أساس لجماعات هذه حقيقة ظروفها . والضرورات تبيح المحظورات .

هى رخصة اذن تستخدم بحقها ، وعند حصول مسوغاتها الطبيعية من أحوال البيئة ، أو من أحوال الأفراد .

وما القول فى زوجة أقعدها المرض ؟ وما القول فى الزوجة العقيم ؟ وما القول فى الزوجة الفاترة ؟ وما القول فى الزوجة السقيمة الأعصاب ؟ أطلاقها أرحم بها أم أردافها بزوجة أخرى ؟

لا شك أن الأمر واضح .

هى رخصة اذن تستخدم بحقها . ولكنها ليست الزاما . فهذه سورة النساء تقول بصريح النص :

« فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة »

بل وتقول أكثر من هذا :

« ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » .

وفى هذا ايحاء ، بل حض على التزوج بواحدة .

وليس من الانصاف فى شيء أن نقيس هــذا الحض بمقياس زماننا وآدابنا . بل بمقياس زمان الدعوة وآدابه . ففى تلك البيئة الصحراوية الجاهلية كان التعدد مطلقا من كل قيد . ومن هــذا نفهم سر قول القرآن : « مثنى وثلاث ورباع » ، بلهجة من يعدد للطامع ما هو مباح ، بأسلوب يوحى بالتوسيع ، وهو يرمى الى التضييق كل التضييق .. وما أشبه هذا ــ فى تصورى ــ بالأب الذى يقول لطفله الشره الى الحلوى شرها لا يقف عند حد ، أو لا يؤذن بقناعة دون العشرة والعشرين :

ــ سنعطيك واحدة فى الصباح ، أو قل اثنتين . وثالثة فى الظهر ورابعة فى العصر . أرأيت أنى لم أبخل عليك ؟ أما ما زاد عن ذلك فليس اليه سبيل ! .

ثم تلا ذلك الايحاء بالواحدة لا تزيد لمن خلف الظلم عند التعدد ، وليس عن الظلم عند التعدد محيص .

أما فى غير تلك البيئة وشبيهاتها من بيئات البشر كافة الذين تتوجه اليهم الدعوة ، فالمسألة أوضح ، ولن تضيرهم رخصة التعدد ، وهم على التوحد أو أقرب اليه طبعا ونشأة ، ولهذا قيل ان الله يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ففى ميدان الفضل والتعفف سعة . وبه يتفاضل الناس بعضهم فوق بعض درجات .

• • •

ولا يتم النظر فى موضوع الزواج ، ما تعدد منه وما توحد ،

من غير النظر فى كيفية الزواج ، أو نوع الصلة الزوجية .

انها ليست مسافدة حيوانية بين ذكر وأنثى ، على اطلاق بواعث الرغبة والاشتهاء الغريزى بين جنسى النوع البشرى . بل لغير هذا قامت كوابح الآداب وضوابط الشرائع والعقائد .

كلا !

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة »

هكذا جاء فى سورة الروم .. وانى لأرى فى قوله «من أنفسكم» لمسة تمس شغاف القلب ، وتذكر بما فى الزواج من قربى تجعل الزوجة قطعة من النفس ثم أردف ذلك بالسكن ، وما أقرب السكن من سكينة النفس فى هذا الباب لا مساكنة الأجساد .. بدليل ما أردف بذلك من المودة والرحمة .

مشاطرة نفس ، وسكنها وسكينتها ، ومودة ورحمة . ما من شىء فى هذه كلها من خصائص المتعة الشهوية والرغبة الجنسية البحت . فان الشهوة تأخذ ، وتنال ، وهى معتصمة بأنانيتها وانعزالها عن الطرف الآخر ، ولا تزيد بعد مأربها الا شعورا بالعزلة والوحدة الموحشة . وشتان هذا والمشاطرة ، وسكن النفس ، والمودة والرحمة.

كل أولئك من صفات الحنان . الحنان الذى يرحم ويؤثر ، ومن صفات المحبة التى تعطى قبل أن تأخذ ، وتنيل قبل أن تنال ، وتقيم مطمئنة لتزداد بالمساكنة غنى وأمنا وأنسا .. وتلك عليا مناعم المعاشرة الانسانية ، بما فيها من غلبة الروح على نزوات الأجساد ودفعات الرغبة العمياء .

الزواج مطلب نفسى وروحى عند الانسان، وليس مطلبا شهويا جسديا وان كان له أساس جسدى .. فما كان أحرى الناس لو أن مطلب الجسد رائدهم ومبتغاهم ألا يعرفوا حدود الزواج وقيوده، التى تفرض الالتزامات على كل حال ، ثقلت تلك الالتزامات أو خفت ، وتربط بين الزوج وزوجه برباط هو قيد على كل حال ، وفى خارج الزواج لا قيد لمن كل همه متاع البدن وقضاء اللبانات الشهوية .

ورب قائل : أما والزواج مطلب نفسى وروحى عند الانسان وليس مطلبا شهويا جسديا وان كان له أساس جسدى ... ففيم التعدد اذن ، وان كان رخصة يهتبلها من شاء ويتنكبها متعففا من شاء ؟.. أما كان التوحد هو سبيل ذلك السكن النفسى بمعنى الكلمة؟

والجواب أن هذا صحيح من حيث المبدأ ولا مراء . ولكن المبادىء قلما تعيش فى دنيا البشر فتتيسر فى أمور هى أمس ماتكون بالحياة اليومية والحقائق المادية .

وأزيد الأمر وضوحا :

أين هى الزوجة المثلى التى تملأ جوانب الرجل النفسية وتسكن اليها نفسه سكنا كاملا حتى لا يفتقد فى كنفها لونا من السكينة والطمأنينة كان يرجوه أو يشتاق اليه ؟

قليل . أقل من القليل .

وسل سليمان الحكيم ، الذى عرف ألوف النساء من جميع الأصناف والألوان ، وقد اجتمع فى خطابه من التجارب الزوجية، والنسوية ما لم يجتمع لانسان ، يقول لك :

«الزوجة الفضلى أثمن من اللؤلؤ النفيس . من ذا يجدها ؟! »

حتى أنت يا سليمان ؟! فماذا يقول اذن سواك من عباد الله الذين لم يؤتوا الملك والجاه العريض ؟

ان من وجد هذه اللؤلؤة بين النساء لن تهفو نفسه الى سواها ، بل يتعلق بها تعلق الطفل بصدر أمه لا يرضى به بديلا ولا يروم عنه حولا ..

أما من لم يجدها ، ففى نفسه أشواق تظل ظمأى ، تتلفت صادقة تنشد ريها هنا وهناك .

وهنا وهناك هذه واقع نلمسه كل يوم ، وكل ساعة ، فى رجال محصنين بالزواج ، تصبو نفوسهم الى غير زوجاتهم ، فى علاقات مختلسة ، تسف بهم وبشريكاتهم الى درك الحيوان ، أو درك الخزى والتأثم المهدد لشعور الكرامة ، الذى هو خاصة الانسان بالاطلاق ..

فراغ ينشد الامتلاء ، فالطبيعة تفزع من الفراغ وتأباه كما يقول الحكيم القديم .. ومن هنا يكون فى رخصة التعدد ملاذ يكفى الناس شرين : أولهما شر التورط فى الآثام التى قد تشوه النفس مهما أرضت نوازع الأشواق الجسدية . وثانى الشرين تطليق الزوجة القديمة لتفسح للزوجة الجديدة مكانا فى نظام التوحد وقد تكون للزواج الأول ثمرات تذوق التشرد . وقد تكون الزوجة الأولى مثقلة بالسنين أو العلة أو الأبناء أو عاطلة من الجمال ، خالية اليد من مهنة ، خاوية الوفاض من مال فتتقوض حياتها ، ولعلها كانت تؤثر البقاء فى كنف زوجها على كل حال .

وانى أعرف من تجـربتى الشخصية حالات كثيرة من هـذا القبيل ، سأذكر منها حالة جار لنا فى دمنهور منذ عشرين سـنة كان متزوجا من سيدة قضي معها ربع قرن لم تشركها زوجةأخرى، وكان لهما ولد واحد تجاوز العشرين من عمره ، ثم مات فجأة ... وخيم الحزن على البيت .. وكان واضحا أن الزوجة بلغت سن اليأس منذ زمن .. وإذا بها تلح على زوجها أن تخطب له زوجـة تنجب لهما ولدا تقر به أعينهما فى خريف العمر !

وخطبت الزوجة لزوجها . واعرس فى دارهما . وكانت الزوجة الأولى من أبر الناس وأرفقهم بالزوجة الجديدة وكأنها ابنتهـا وكان فرحها بالمولود البكر فرحا جارفا ، فكأنما دبت الخضرة فى عودها الجاف ، وعود زوجها الثاكل .. وأشهد أن هذا الطفل كان ألصق بصدر زوجة أبيه الكهلة من صدر أمه الشابة . وأشهد أنى أدركت من أحوال هذه الأسرة معنى ما حفلت به كتب بنى إسرائيل من ندب الزوجة العاقر جارية لها كى تحمل من زوجها وتلد لها نسلا !

وفى اعتقادى أن هذا الرأى المستمد من الواقع فى تحديدظروف التوحد والتعدد هو أقرب ما يكون للتعليل الطبيعى .

ولو نظرنا الى حياة الرسول نفسه لوجدناه لم يشرك فى فراشه أحدا مدة حياة خديجة ، وقد طال زواجهما ربع قرن تقريبا ، هو طور الفحـولة فى حياة الانسـان ، ما بين الخمسـة والعشرين والخمسين . ولم تتعدد زوجاته الا بعد وفاتها .

وليس هذا موضع الكلام فى ظروف زواجه بأولئك الزوجات ،

بل حسبنا الاشارة الى أن خديجة كانت الزوجة المثلى فى حياة الرسول ، ظل يشهد بذلك ويغار عليها الى ختام أيامه ، ويؤكد لعائشة الصغيرة البكر أن الله لم يبدله بخديجة خيرا منها قط !

زوجة مثلى ملأت فراغ النفس فسكنت اليها . ولما ذهبت تركت فراغا هائلا لم تستطع واحدة أن تملأه . وأكاد أحس أن الكثيرات عجزن عن ملء هذا الفراغ الكبير على وجه التمام .

وأيا كان التعدد بموجبات تلك الرخصة ، فهو مشروط على كل حال بالمودة والرحمة ، فلا تحل فيه المغايظة والاضرار الأنانى اللئيم .

وبحسبى أن أشير هنا الى ما رواه البخارى بأن الرسول رفض أن يتزوج على بن أبى طالب امرأة أخرى على ابنته فاطمة .

وهذا فى اعتقادى من باب السمو الذى يحض القرآن عليه اذ أشار الى الاكتفاء بواحدة خيفة الظلم الذى لا مناص منه فى حال التعدد . ولكن الرخصة واضحة ، والحكمة منها قاطعة بأن التعدد غير محرم لمن عجز عن الخطة المثلى وهى التوحد .

رخصة مبذولة لمن لا مندوحة لهم عنها . والمرتقى فوق ذلك مفتوح لمن استطاع وهو محمود . وها نحن نرى ظروف الناس تتقدم بهم يوما بعد يوم نحو سياسة التوحد فى الزواج ، مع ارتقاء العلم ، وانفساح الفرص للزواج عن بينة ودرس وتمحيص .

***

ولابد فى هذا المقام من التعرض لناموس الزواج أصلا ، بعد

أن أشاعت المسيحية حوله جوا خاصا ، خلاصته أن العفة ، أو الرهبانية هى الأصل . ومن لم يستطع ذلك فليتزوج . فكان الزواج رخصة يرتخصها من لامندوحة له من ذلك والسلام .

ولاشك ان هذا المفهوم مرتبط بفكرة الخطيئةالأولى ، واعتبار أن العلاقة الجنسية شر فى ذاتها ولذاتها . وان الجسد كله عورة بكل رغائبه وطلبه للطيبات من الدنيا . فهذا الترهب، مع النسك ، والصيام المسيحى العزوف عن أطايب الأدام ، أدلة على الضيق بالبدن ، وازدرائه ، وصحبته على مضاضة ، والنظر الى مطالبه ، والى زينة الدنيا جملة نظرة عداء وخصومة .

البدن شر لا بد منه . وكذلك الزواج . والخير كل الخير فى محاربتهما وعدم الانسياق لهما والاخلاد أليهما .

حياة لا طمأنينة فيها ولا قرار . وانما هو الصراع المستعر ، والقلق المستمر ، الذى تفسد به الدنيا ، وتعيا به النفس . وقد كشف لنا علم النفس الحديث عن العلل والآفات المخربة التى تسمم ينابيع الحياة بسبب الشعور بالتأثم من الجسم وغرائزه النوعية .

وما حال انسان يمارس الحياة حزينا مستخزيا من كل نبضة سرور بها وكل خلجة استمتاع فيها وكل انتفاضة طبيعية اليها !

ان الاسلام لا يقاوم الحياة ، بل يقر الفطرة البشرية على تقديسها ، وصيانة ينابيعها من الأكدار . ولا يفصل بين حياة الروح وحياة الجسد حيث لا انفصال لهما فى واقع الجبلة التى جبلها خالقها الحكيم الخبير .

ان القرآن يكرر فضل الخالق وحكمته السامية فى ابداع الجنسين وكيف أن هذه سنة الله فى خلقه كذفه فى جميع مراتب الحياة . والرسول يؤكد أن الزواج نصف الدين .

وأى تعبير أقرب الى فطرة الحياة ، ويرفع عن تلك الصلة كل شبهة فى خزى أو هبوط معيب ، مما ورد فى سورة البقرة ، بذلك التعبير اللطيف الرقيق اللبق :

« هن لباس لكم وأنتم لباس لهن »

أو كما ورد فى سورة النساء فى باب تعظيم ما يكون بالزواج من ميثاق وعقد وعهد له حرمة ترعى :

« .. وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا .. »

بل ان الكراهة أمر لايسوغ البدار الى فصم العروة الوثقى ، كما جاء فى سورة النساء أيضا :

« .. وعاشروهن بالمعروف . فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيأ ويجعل الله فيه خيرا كثيرا .. »

ان الأساس فى ذلك العقد أنه لا ضرر ولا ضرار « فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » . كما جاء فى سورة البقرة . وان ذلك لمسبار الخلق الكريم الذى يترفع فى سمت الفروسية عن الافتئات الذميم والجور اللئيم . حتى ان الرسول قال فى خطبة الوداع :

« واستوصوا بالنساء خيرا فانهن عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا . وأنكم انما أخذتموهن بأمانة الله »

ان الرجل يمسك المرأة ويقوم على أمرها فى كنفه . فهى تحت

رحمته ، ومن ثم وجبت عليه الرحمة بها ولم يجز له الاستبداد بأمرها . انها أمانة الله فى يده وعنقه . وليس بعد أمانة الله محرجة لمن ألقى السمع وهــو شــهيد !

• • •

استجابة للحياة فى طلاقة وبراءة من التأثم . وتقديس لدوافعها وورود طاق لينابيعها ، مع الحفاظ عليها من أكدار البهيمية المسفة. بذلك يسعد المرء من بنى الانسان ، وتترقرق فى نفسه نضارة الثقة وأفراح الحياة . ولا يجد حرجا بين ربه ونفسه ، وربه قد خلقه على تلك الفطرة ، ولو شاء لجعله ملكا لا بدن له ولا شهوة .

كان لا بد من اصلاح ما بين الانسان وبين نفسه التى بين جنبيه بعقيدة موفقة بين الدين والدنيا . وقد نهض بهذا الاسلام ، وكانت سنته فى الزواج كفاء خطته فى جوانب الهداية البشرية الفطرية ، لتحرير البشر من الذعر ، والخزى وعقدة الاثم الشوهاء التى كبلته ولم تزل تكبل الكثيرين عن انطلاقة الحياة وسواء الفطرة.

• • •

« فامساك بمعروف أو تسريح باحسان »

أجل !

لا يمكن أن تتم لنا فكرةمتكاملة عنالزواج ، منغير التعرض لموضوع الطلاق .

والحق انه يعسر جدا قصــور زواج بغير طلاق بصــورة من الصور . فالزواج نظام جعل لاسعاد الناس وصلاح أمور حياتهم . ولم يجعل الناس ليكونوا عبيدا أو ضحايا للزواج ،فالزواجالذى

تستقيم به حياة الانسان هــو الذى يستحق الابقاء عليه . أما الزواج الذى به تفسد حياة الانسان ويتطرق اليها العطب والعفن وصديد الحقد والسخط . فهذا ينبغى أن يبتر قبل أن يقضى على فرصة الحياة الفذة المقدسة ، كما يبتر العضو الفاسد من الجسم حرصا على البقاء للجسم كله. مهماكان ذلك العضو المبتور عزيزا.

« لا ضرر ولا ضرار » .

قاعدة ليس أحكم منها فى جميع شــئون البشر ومعاملاتهم . وهذه هى القاعدة الاسلامية العامة .

ان فرصة الانسان فى الحياة واحدة ، فعيم نجعلها عذابا مقيما لزوجين وقد تبين لنا أن الوفاق بينهما مستحيل ، وان حياتهما معاً اهدار لحياتهما لا محالة ؟

ان التطبيق العملي أثبت ذلك ، وصارت أمم الغرب المسيحية تجيز الطلاق فى قانونها بواســطة المحاكم . وذهب بعضــها الى التوسعة فى أسباب الطلاق واجراءاته حتى كأنها مهزلة شكلية .

ثم ما قيمة سعادة يسعد بها الانسان ، ان كان يدرك ويحس أنه محكوم عليه بهذه السعادة ولا فكاك له منها بأى حال من الأحوال؟ انها تكون سعادة جبرية لا اختيار فيها ولا حرية ، وفى يقينى أن الشعور بالحرية والقدرة على اختيار المواقف والمصير هما حجر الأساس فى كل احساس بالكرامة البشرية . وبغير تلك الكرامة لا قيمة لسعادة مفروضة مهما استطالت .

ان السعادة الحقيقية هى التى يشعر معها الشخص أن الباب أمامه مفتوح ، وأنه لو قدر له أن يملك زمام الاختيار من جديد،

ما اختار الا ما هو فيه .

ان رخصة الطلاق دواء مر المذاق . أو جراحة موجعة . ولكن من ذا الذى يلغى التداوى كراهة للمرارة ، أو يحرم الجراحات كراهة للآلام والمصائب ؟..

لابد من الدواء ومن الجـراحة ، ما دمنا نعيش فى عالم كون وفساد وصواب وخطأ ، وصـحة ومرض ، وحكمة وحماقة .. بحيث لا عصمة للبشر ، لابد من سيلة لتدارك الأخطاء ، اعطاء الفرصة لبنى آدم وبنات حواء كى يبدؤا من جديد بناء سعادتهم فى الدنيا باقامة أركان أسرات سليمة الصرح ، يعمرها الأمن والمودة والرحمة .

والاسلام يضع رخصة الطلاق فى موضع الدواء الكريه المذاق أو مبضع الجراح ولا زيادة . ولا يكون اللجوء اليه الا بعد استنفاد الحيلة فى اصلاح ذات البين . فقد جاء بسورة النساء :

« وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا »

فاذا عجز حكم من أهلها وحكم من أهله عن اصلاح ذات البين، فقد آن اذن أن يكون « تسريح باحسان » ، لأن الامساك بالمرأة على كراهة بينة لا يرجى لها علاج يكون مضارة لها ، والقاعدة المثلى فى الاسلام أنه لا ضرر ولا ضرار . ولذا جاء فى سورة البقرة:

« ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه»

وليست المرأة فى جميع الأحوال تحت رحمـة الزوج امساكا وتسريحا ، اذ يجوز أن تكون عصـمة المرأة بيـدها ان شرطت

ذلك عند عقد الزواج . فيكون زمام الحياة الزوجية فى عنقها ان شاءت أبقت وان شاءت فصمت .

وهذا هو الحدالذى يقول العقل انه لا يحوزعلى حقوق السعادة الفردية ، ولا يجعل الزواج أحيانا « عاهة مستديمة » بغير مبرر عقلى ، وبغير مصلحة لكائن من كان .

وقد يحتج محتج بمصلحة الأولاد . وتلك رتب الاسلام فيها أحكام النفقة ، وأحكام الحضانة . ثم ما من أحد يقول ان تربية الأطفال فى كنف أبوين متفاهمين متحابين أمر يستوى وتربينهما فى كنف أحدهما دون الآخر . ولكن المسألة هى أن التفاهم بين الأبوين وقد امتنع ، يكون من الخير ألا ينشأ الأولاد فى ذلك الجو الحاقد اللدود ، فذلك أهون الشرين لهم . وهو كذلك أهون الشرين للأبوين . وهى على حال آفة لا يقبل عليها عاقل وله غنها مندوحة .

وقد لعن الرسول من يستخدمون رخصة الزواج بغير حقها الانسانى والشرعى ، قضاء لمآرب وضيعة . فجاء فى الحديث الشريف :

« لعن الله كل ذواق مطلاق » و « لعن الله الذواقين والذواقات » .

« ولعن الله كل مزواج مطلاق » .

ولحكمة واضحة جعل الطلاق على ثلاث مراحل . حتى يكون هناك موضع للمراجعة قبل أن تقع الواقعة . فان سلطان الغضب غشوم . أما السكران أو المحرج أو المكره فلا يقع منه طلاق ..

وأما القول بأن يكون القاضى هو الذى يصدر الطلاق لأسباب محددة ، مثل الزنا ، فقول فيه وجه غضاضة . لأن لتحاكم فى دور

القضاء فيه ابتذال للاعراض حتى تغدو مضغة فى الأفواه وعرضة للحاجة والملاحاة .

ان صون الأسرار وأسباب الفراق هنا أليق ، وفيه من النجوة والبصيرة الشيء الكثير ، حتى لا توصم المرأة بما يعيبها ويعوق زواجها كرة أخـرى . ولا يوصم بناتها أو أبنـاؤها بما تردد فى قاعات المحاكم من مثالبها ، وما قد يصدر حكم القاضى تأسيسا عليـه .

ثم كيف لنا بتحـديد الأسباب التى تجيز الطـلاق بناء على طلب الرجل ؟

ان الزواج صلة حميمة . وقد لا يرى الغريب فى المرأة عيبا . ولكن يجد الزوج فيها عيباً كبيرا . وليس من الضرورى أن يكون ذلك العيب جسمياً أو محسوساً . فهناك اختلاف الطباع ، مع كمال الأدب فى الزوجين ، بحيث يمتنع بينهما الامتزاج والتفاهم . أما ترى الى الماء قد يكون من أجود الماء . والى الزيت قد يكون من أجود الزيت ، ثم لا يمكن بينهما امتزاج لاختلاف المعدنين ؟..

كذلك الناس معادن شتى ، قد يطيب كل معدن منها على حدة ولكن ضربة لازب أن يمتزج أى معدنين منهما على الوجه الذى تستقيم به حياة الزواج . وعندئذ يكون الافتراق خيرا وأولى لأن كلا من الزوجين قد يصلح كل الصلاح للزواج بآخر ويحيا حياة سعيدة .

فلا عيب فى الدواء اذن ، ولا يطعن فى صلاحه أن تطيش به يد أو يشتط لسان . فلا يطعن على الماء أنه قد يشرق به الشارب أو

يغرق فيه المغتسل . ولا يطعن فى النار أنها قد تكون حريقا لا يبقى ولا يذر . فالمعول كله على تقوى الله ثم على حسن البصر ومراعاة الحــذر .

• • •

ولابد من كلمة أخيرة ، عن جواز زواج المسلم بالكتابية ــ يهودية كانت أو نصرانية ــ فى حين يمتنع العــكس ، أى زواج الكتابى ــ يهوديا أو نصرانيا ــ بمسلمة .

فاذا تذكرنا أن الاســلام يعترف باليهودية والنصرانية ولا يجحدهما ، عرفنا أنه لاغضاضة على الزوجة الكتابية فى الاحتفاظ بدينها وهى زوج للرجل المسلم . ولكن اليهود والنصارى جرى تقدير رجال الدين عندهم على انكار الاسلام ، فتكون المسلمة غير آمنة على دينها فى كنف الكتابى . وليست المسألة اذن مســألة عصبية أو تحيز فى كثير أو قليل .

لا قيصر

« اعطو ما لقيصر لقيصر وما لله لله ! »

عالم مقسوم : شطره لله وشطره لقيصر .

عالم مقسوم : شطره للقلب والروح وشطره للحس والبدن .

عالم مقسوم : شطره للدين وشطره للدنيا .

عالم مقسوم : وعلى المرء أن يختار شطرا منه ويتخلى عن شطر . ويجعل بينه وبين الشطر المتروك سدا ، سدا من عداء ، أو سدا من اذعان سلبى هو كالعداء سواء بسواء .

تلك دعوة السيد الناصرى ، وقد عدل بها عن سنن اليهود فى تعلقهم بالملك ، وحرصهم على الدنيا ، فجعل الدين للقلب ، وجعل العزة للروح . ونادى بتحقير الدنيا ، ونبذها ، بما فيها من مال ، وحس ، وبدن ، وملك ، وسلطان .

أقيصر بيده مقاليد الدنيا ؟ قل اذن ما الدنيا ؟ فانك بعدها لخليق أن تقول وما قيصر ؟! فليذهب قيصر بالدنيا على رحبها ، فأعظم ما فيها عندئذ هين ، وأجل ما يكون من أمرها حقير ، ما سلمت لك نفسك التى بين جنبيك من شوائب الدنيا ، وزغل السلطان وفتنته . فانك فى حزب الله أجل من قيصر شأنا ، لأنك أحظى منه سكينة نفس وأمنا ، وأهدى منه سبيلا .

ذلك نصيب من نفضوا من الدنيا أيديهم ، بل ونفضوا ترابها من

نعالهم ، وسلكوا الى ربهم مرتقى عسيرا الا على من يسرهم المولى له ، وهم قلة نادرة بين العالمين .. أما سواد البشر وهم ملايين ومئات ملايين فلا هم قادرون على الانسلاخ من الدنيا التى تضج فى دمائهم قبل أن تضج فيما حولهم من المغريات والمقيمات المقعدات . ولا هم قادرون ازاء هذه الدعوة على الاقبال على الدنيا بقلب سليم وعزم مقيم . وانما هو الفصام . وانما هو التعلق بين الأرض والسماء ، عاجزين عن اليقين ، حيارى مالهم من قرار ..

أعز مكان فى هذه الدنيا اذن دير من الديور أو صومعة مفردة فى مفازة بيداء ، لا يطرقها طارق ، ولا ينعق فيها ناعق، يخلو فيها العابد لوجه الله . فما الدنيا للانسان بدار . وانما هو قد نعاها وجفاها ، وما لبثه فيه الا ريثما يقبضه ملك الموت فيتم عليه ما اعتزمه منذ أمد بعيد وأوغل فيه من ترك الحياة .

وما كل امرىء بقادر على أن يكون راهباً فى دير أو ناسكا فى صومعة . ولو قدر كل انسان على ذلك لاضمحلت الحياة وباد منها بنو آدم وورثها من الوحش وخشاش الأرض الوارثون .

وما كان تقاعس الناس عن هذه الخطة ضعفا منهم أو عجزا ، بل مطاوعة منهم لفطرة الله القاهرة التى فطرهم عليها حين ركب فى نفوسهم حب الحياة والاقبال عليها غير مختارين . فلو كان مراده سبحانه من الخلق أن يستدبروا الدنيا ويخلوا الحياة من وجدانهم ومقاصدهم ، ففيم اذن كان خلقه للدنيا وخلقهم فيها ، وخلق محبتها فى قلوبهم فطرة لا حاجة معها الى تعلم أو اكتساب ؟

وتغلبت فطرة الخلق ، وصابر الناس على الانصراف الى الحياة،

لا الانصراف عنها ، فكان اذن لابد من موقف من قيصر ، وفى يده مقاليد الدنيا .

كان اذن لابد من انشغال الخاطر بأمر السلطة وأسلوب الحكم وليس فى الانصياع السلبى والتسليم للحكومة أى معنى من معانى الاهتمام . فالاهتمام هم ومشاركة وعمل .

وبأى سند من المبدأ أو العقل أو العقيدة تنصدى لذلك الاهتمام بالحكم وأسلوبه ، وقد قسمت الأمر بين ما هو لله وما هو لقيصر ، فجعلت من قيصر فى الدنيا ندا لله فى عالم الغيب والسريرة ؟

لابد هنا من وقفة حاسمة وضربة قاصمة ، حتى يصير الأمر كله لله ، بين دنيا الانسان وأخراه .

ولهذه أيضا تصدى القرآن ، وانبرى الاسلام ، فمحا تلك القسمة محوا ، ووحد مملكة الحق سفلا وعلوا فجاء فى سورة الأعراف :

« قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض »

فمن يكون هنا قيصر ؟ بل أين هو ؟

لا قيصر بعد اليوم !

« بل الأمر لله جميعا »

« ولله المشرق والمغرب » .

« رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون »

الله أكبر ولا قيصر بعد اليوم !

وليس قيصر الروم وحده هو الذى نعنيه حين نقول قيصر ، بل

كل حاكم يسوم الرعية الخسف ، ويستمد من غير الحق والعدل والأصول الالهية سلطانه على الناس .

لا قيصر بعد اليوم بين قوم يؤمنون بأنه لا انه الا الله « له الخلق والأمر » « وأمرهم شورى بينهم » . كما جاء فى سورة الشورى ..

بل ان الرسول ، وهو الحاكم الأول زمانا ومقاما وقدوة، كان عليه أن يشاور المؤمنين فى الأمر ، وكذلك كان يفعل ، فقد ورد فى آل عمران .

« وشاورهم فى الأمر » .

أتعطى ما لله لله وما لقيصر لقيصر ؟

ومن ذا يملك من الأمر شيئا غير الله .. فهذا هو رسوله والحاكم الآمر باسمه يجابه فى آل عمران بأنه :

« ليس لك من الأمر شىء ! » ويقال له فى سورة ق :

« وما أنت عليهم بجبار » .

لا جبار على المؤمنين ، و « انما المؤمنون اخوة » كما جاء فى سورة الحجرات .

الحاكم اذن يقوم باسم الأمة . وأى أمة ؟!

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » كما جاء فى (آل عمران)

هى أمة اذن وليست ملكا موروثا ، المؤمنون فيها اخوة وليس عليهم جبار . وحكم الله فيهم شورى بينهم وليس حكمه فيهم لأحد يتحدث باسمه ويحتكر السلطان على الناس أو لجماعة منهم كأنهم أرباب لهم منزلة وسط بين الله والناس :

« قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ! » (سورة التوبة)

لا كهان ولا احبار .. وانما الأمر كله لكتاب الله وما أخذ به عباده من سنة ارتضاها لهم .

وهكذا تتسق السرائر والمظاهر ، وتكون حكومة الناس صورة من عقيدتهم . يحكم الحاكم بما أمر الله ، وليس له أن يكون على الناس جبارا ، وليس له أن ينفرد بالأمر دونهم . بل انه لا يكون حاكما الا باجماع منهم ، وعندئذ تجب عليهم الطاعة له ما عدل واتقى ، وعليهم أن يعينوه على الأمر بالمشورة والرأى والطاعة .

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » كما جاء فى سورة المائدة .

ففى حدود البر والتقوى والعدل : « اسمعوا واطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » كما جاء فى الحديث الشريف .

للحاكم على الناس الطاعة ، ولهم عليه أن يعدل ، ويتقى الله ، ويشاورهم فى الأمر ، وان يخفض لهم جناحه . فما هو الا مؤتم برسوله وقد قيل له فى سورة الشعراء : « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » ..

أما ان ضل وغوى ، وأعجبته نفسه ، وفتنه سلطانه ، فقد غدر بالبيعة التى فى أعناق الناس اذ جار عليهم . وما كان لهم أن يعينوه على الأمر ، حتى لا يكون تعاون « على الاثم والعدوان » .

وما هلك الأمم من قبلهم الا لأنهم « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » كما جاء فى سورة المائدة . ولذا كان « أفضل الجهاد كلمة

حق عند سلطان جائر » كما قال صاحب الرسالة فى حديثه الشريف.

الأمر لله جميعا .. والمؤمنون أمة الله ، فى أعناقهم أمانة دينه وحقه وعدله . فمن فرط فى شىء من ذلك كان مجترحا لأمر عظيم

أليس الرسول هو القائل فى كلماته الجوامع ، وحكمه النواصع: « كما تكونوا يول عليكم » ؟!

بلى !! فلن يقوم جائر فى قوم طبعوا على العدل . والحق . وكرامة العدل والغيرة على الحق !

بلى ! ولن يقوم عادل فى قوم بهتان وذل . فانه خليق أن يتعلم من تطامنهم الشموخ ، ومن انقيادهم الصيد والاستبداد .

« كما تكونوا يول عليكم »

صدق رسول الاسلام . وما غادره صدق الالهام ، وهو القائل:

« من رأى منكم منكرا فليقومه بيده . فان لم يستطع فبلسانه. فان لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الايمان » .

أجل يا رسول الخير والصدق والحق ! فالناس بخير ، وحكومتهم بخير ، ما بقى للحق فى قلوبهم مكان ، وللغيرة على العدل فى قلوبهم الكلمة والسلطان ، وما أيسر المنكر أن يجد فى قلوبهم الاغفاء والتواطؤ . وما أبوا أن يجعلوا ممن يحكمون بالجور شركاء لله بالاستكانة والاذعان .

صدقت يا رسول الصدق ، وصدق بمدد منك الامام محمد عبده حين قال ان المعول كله على « يقظة الأمة » . وانه اذا فقدت الأمة شجاعة ايمانها فلا خير لها فى شىء من مظاهر المنعة والحرية والاستقلال .

أشورى بلسان ولا قلب ، واجتماع ولا صدق ؟

ذلك هو النفاق الكبير

« وشاورهم فى الأمر » .. ولكن « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » (سورة الزمر)

وما هو بسؤال وانما هو انكار أو استنكار . اذن « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » (سورة النحل)

اسألوا أهل الذكر ، من يذكرون الله ويصـــدقون ويتقون . لا الذين يذكرون مصالحهم ومآربهم ويتزلفون. ومن يبتغون المال والجاه . « كى لا تكون دولة بين الأغنياء منكم » (سورة الحشر).

والأمة بخير ماأوتيت شجاعة الايمان، والحكومة بخير ماوطدت ذلك الايمان لها على رصد ساهر لم ينم . ذلك « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (سورة الرعد) .

أجل ! « كما تكونوا يول عليكم » . ذلك الحديث الشريف !

« ولا يظلم ربك أحدا » (الكهف)

« ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (الأنفال) .

أيها الناس : أمركم اليكم . وحكومتكم منكم وبكم واليكم . وكلكم الله الى ايمانكم . وأراد بكم الخير فلا تريدوا بأنفسكم الضير ..

لا قيصر بعد اليوم . بل لله الأمر جميعا . والله قد فوضكم فى أنفسكم ولم يجعل عليكم وكيلا ولا كاهنا ولا جبارا .. وانما هو ايمانكم وعقلكم . وما هلك الأمم من قبلهم الا لأنهم « كانوا

لا يتناهون عن منكر فعلوه .. » (سورة المائدة)

وكأين من مفر من ترك راية العدل تسقط من قلبه اتباعالسلطان جائر أو طمعا فى قربى لديه ، فقد أشرك بالله وباع دينهواتبع قيصر.. وكفر بأن « لله الأمر جميعا » . « الذى له ملكالسموات والأرض»

ألا من له أذنان للسمع فليسمع .

فبمثل هذا يكون الملكوت فى الأرض ، وبمثل هذا تكونعمارة الأرض . وبمثل هذا لا يكون المؤمنون بالله أذلاء بايمانهم امام الطاغوت مستضعفين فى الأرض . ولا يكون من تجبر وخرج على الله أقوى فيها ممن قال ربى الله .

ان من «قالوا ربنا الله» حقا ليسوا كمن قالوا « كنا مستضعفين فى الأرض » .

تلك عقيدة تمت دنيا ودينا ، لأن الدنيا فيها مسبار الدين . والانسان فيها مسدد اليقين . لا يعبد الا ربا واحدا . حكامه فى الأرض خدامه وصالحوه . هو على نفسه ودينه وكيل مسئول . وليس عليه فيها جبار .

« وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهمأئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض » (سورة القصص)

تلك هى حياة القوة : قوة اليقين بالله لا قوة الحيوان أو قوة العدوان .

« ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .. » (سورة ق) .

مع الناس

« انما المؤمنون اخوة » (سورة الحجرات)

هذا مسلم به . ولكن ما القول فى غير المسلمين ؟

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصائبين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (سورة البقرة)

وما هى علاقة الأمم والشعوب فيما بين بعضها وبعض ؟

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . ان أكرمكم عند الله أتقاكم . ان الله عليم خبير» (سورة الحجرات)

لتعارفوا ..! هذا لباب الصلة بين قوم وقوم وشعب وشعب . انما هى المعرفة والعرف والمعروف . والأكرم بينهم أكثرهم تقوى . ومن اتقى الله ما ظلم وما بغى . وما افتات وما اعتدى .

تلك هى شريعة الاخاء . وهى شريعة الحرية ، التى لا تعرف قيصر ، ولا تعرف عقدة اثم ، ولا تعنو حياة الخلق فيها لغير الله .

أفهى شريعة مساواة ؟

انها لشريعة مساواة . وما هى شريعة تسوية . هى شريعة عدل. والعدل أن يؤتى كل ذى حق حقه ، وأن يكون التقدير فرعا عن القدر .. كذلك تتفاضل الأقمار ، والأشجار .. أفلا تتفاوت بين الناس الأقدار ؟

« ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض » (سورة الاسراء)

أجـــل !

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » (الزمر)

حاشا وكلا ! لا يســتوون . وان كابر الجـاهلون ، أو ظلم الظالمون ، وانما كانوا أنفسهم يظلمون ! بل :

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (المجادلة) .

« انما المؤمنون اخوة »

« ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون » (الانعام)

« ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » (الأنعام)

كل اذن ينال على قدر عمله . ولكن بغير بغى ، ذلك أنه يريد « ليبلوكم فيما أتاكم » .. وبغير حبس الأرزاق أو استغلال للثراء أو ايثار للأموال الخاصة على المصلحة العامه

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سـبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » (التوبة)

وسبيل الله منه ماهو حرب عدو بالسلاح ، وما هو دفع بلاء داخلى أو اصلاح أو منفعة عامة للجماعة كافة . فذلك هو سبيل الله حقا ، لأن الله غان عن العباد ، وانما يريد وجه الله من نفع النـاس وخفف علتهم ويسر لهم أمور معاشهم ؛ فذلك هو الاحسان وابتغاء سبيل الله « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » يتداولون فيما بينهم استئثارا واحتكارا ، وتلك قمة العسف بالناس، واذلالهم

واعناتهم فى أرزاقهم .

كل فى هذه الشريعة ينال على قدر عمله وفضله، « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » (سورة التوبة)

سيرى المؤمنون عملكم . وسيحاسبونكم عليه ، ويقدرونه لكم، كما سيقدره الله .

هو العمل اذن ، ولكن لا للمعاش والمنفعة الذاتية فحسب ، بل ابتغاء مرضاة الله ومرضاة الناس ومرضاة خيرالجماعة.وعلى قدر هذا يكون التقدير .

وهذا أمير المؤمنين ابن الخطاب يذهب فى تقدير العمل النافع البناء لخير الأمة الى حد ما بعده مزيد :

« والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة »

ومن قال هذا فقد أراد أن الاسلام الصحيح أو الايمان الصحيح هو العمل النافع للناس .

« وأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » (سورة الرعد)

صدق الله العظيم !.. « ما ينفع الناس » ذلكم هو العمل . وذلكم هو الفضل . وذلكم هو الفوز العظيم . وليس اكتنازالمال، واقتناء الصروح والضياع ، والاستكثار من الزخرف والمتاع .

وليس البر فى البطالة والسجود . أو حبس الأموال مع الصيام والتهجد ، كلا :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . ولكن

البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب » (سورة البقرة)

وعند قوله (على حبه) وقفة لمن ألقى السمع وهو شهيد !

الله أعلم بحب الناس للمال وهو القائل أن « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » .. ولكن الانسان المؤمن حقا من يؤثر الواجب على هوى نفسه ، ويبذل المال لمن تجب عليه صلتهم ، فان صلة الخلق قربى الى خالقهم ، فانه بذلك « يقرض الله قرضا حسنا » .

اعمل ويسر للناس أن يعملوا ، ولا تحبس المال عن التداول بين أيديهم كافة . وابذل مالك على حبك له للأقرباء واليتامى والمساكين والسائلين . ثم عليك بعد ذلك الزكاة « فريضة من الله »

فريضة لا يراد بها الكسالى . بل من أقعدتهم عن العمل العوائق، على طلبهم له ودأبهم فى ذلك . فالكسب من العمل هو الأساس . ثم من لم يجد عملا فعلى الجماعة واجب اعالته من مال الزكاة .

دين عمل لا دين بطالة واستجداء .

• • •

ونعود كرة أخرى الى قوله « على حبه » فانها باب جانب كبير من العلاقات الانسانية فى دين الاسلام .. وانا لنجدها حيثما ذكرت الصدقة ، سواء بالمال أو بالطعام ، فجاء فى سورة الانسان :

« ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » (وفى البقرة) : « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى »

ففى ذلك مغزى الخلق الاسلامى وخاصته المميزة. فليست هذه

الفروض من الأمور التنظيميـــة للمجتمع فحسب . وليست من الأعمال التى يبتغى بها وجه المصلحة الاجتماعية ورقى المعيشـــة فى الأمة وصلاح الأحوال بموجب عقلى . بل هو عمل خلقى فى المقام الأول ، يبتغى به وجه العاطفة الخلقية : وجه الواجب .

والفرق بين فعل عقلى وفعل خلقى فى هذا المقام ، هو الفرق بين ما هو بوحى من العقيدة ، وما هو بوحى من المصلحة ، ضاق مداها أو اتسع .

فاننا نرى اليوم أمما بلغ عندها الفهم العقلى والتنظيم الاجتماعى المادى غاية مداه ، ورفرف اليسر على أعضاء الجماعة . ولكنهم لا يحسون سعادة نفسية بذلك الرخاء .

لماذا ؟

وهنا ترتسم علامة استفهام ضخمة ، لأن هذا هو الفيصل بين الروح والمادة ، بين العقيدة والعقل ، بين العاطفة والمصلحة . بل بين الله والانسان .

ان التنظيم الاجتماعى العقلى أو المادى يستوحى تحسين حال المجموع بعامة تحسينا ينعكس على كل فرد فى ذلك المجموع .

ولكن السؤال الكبير هو أن هذا التحسن أو التقدم أو اليسر أو الرخاء ، يصيب ماذا ؟ أو يصيب من ؟

ان التقدم المادى تحسين لظروف الآدمى ، وليس تحسينلذات الآدمى . وتقدم لأحـــوال الانسان ، وليس تقـــدما يصيب ذات الانسان ووجدانه . انه رقى فى الكمية ، وليس رقيا فى كيفية ذلك الانسان ، أو وجدانه ، أو قيمته من حيث هو ذات واعية شاعرة ناطقة .

ان الانسان المتقدم بمادياته وأحوال معاشه فحسب ليعجزه أن يجد لذلك طعما وجدانيا عميقا ، أو رقيا فى قيمته ونهوضا بمعنى انسانيته . انه كالبغل المزركش ولا زيادة !

أما الانسان الذى يحس ارتباطا بين قيمته وبين قيم الكون الكبرى . وبين أفعاله ومقاييس الأبد . وبين وجدانه وحقيقة الوجود . فالرضوان الذى يشعر به من أفعاله الأخلاقية وحسناته الايمانية رضوان انسانى لا حيوانى . روحى لا حسى .. بحيث يفيض عليه من الأبدية ضوء ينير له مزيدا من الارتقاء فى الرضوان ، والسعادة ، يمتد الى ما وراء القبر .

وهذا هو الفيصل الأكبر بين سعادة المؤمن ورفاهية المادى . بين يقين الروح وضياع المادة . بين حسن الأخلاق وحساب المصلحة الاجتماعية مهما امتد أفقها واتسع محيطها وعم رخاؤها .

وهذه هى أخلاق الاسلام :

بذل للمال والطعام على حبهما ، ابتغاء لما فى الايثار من شعور بالنجدة ، وقيام بالواجب الانسانى والفرض الالهى ، وطموحا الى نعيم لا يزول بعدئذ لمن عمل صالحا .

أخلاق أساسها الشعور بالواجب ، والقربى الى الله فى كمال صفاته وآلائه الحسنى . « ولله المثل الأعلى » .

وأى مثل أعلى يلتمسه الانسان ويخطؤه فى أسماء الله الحسنى؟ انه الرحمن ، الرحيم ، العليم ، الخبير ، اللطيف ، البصير ، السميع ، المجيب ، الودود .. الى آخر تلك الآلاء التى جلاها لعباده حثا لهم لا اعجازا ، « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » . « فمن اضطر

غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه » .

ان المصدر السماوى للاخلاق فى العقيدة الدينية هو الحافز الدائم للمرء على الارتفاع بنفسه وسلوكه وعواطفه فوق طبيعته الأرضية ورغائبه الحسية وأنانيته الحيوانيه .

« وابتغاء وجه الله »

هذا هو الحافز الأكبر على مكارم الأخلاق ، وبعد هذا فلاحرج على من يطلب مصلحة المجتمع لسبب عقلى ، ومن ينظمها لهدف مادى .. فالاسلام لا يلغى العقل ولا يجحد المادة . ولكنه يضعهما فى حدودهما ولا يعدو بهما قدرهما الحق . فهما بغير القيمة الروحية لا يجديان الانسان فتيلا . فيكون كمن ختم على سمعه وبصره « فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »

ان التقدم المادى بغير السمو الروحى عمى مطبق . وقعود عن التحليق . وارتباط وخيم بتراب الأرض ، ولو جعلته تبرا ابريزا .

وبعد هذا السمو الروحى ، فمصالح الناس المرسلة أهل للرعاية، وهم أعلم بشئون دنياهم .

وليس التنظيم الاسلامى لأمور الدنيا بنظام مقفل جامد .. بل هو التنظيم الجوهرى الذى لبابه قول صاحب الرسالة الكريم :

« لا ضرر ولا ضرار »

« وأنتم أعلم بأمور دنياكم » .

فما لم يرد فيه نص بتحريم لسبب من أسباب العقيدة الروحية، فلا بأس على الناس فيه ، ما لم يكن فيه ضرر لصاحبه أو اضرار بسواه .

خلق كريم وايثار ونجدة ابتغاء وجه الله . واتقاء لغضبه فى معاملة الناس . واصلاح لحال الدنيا من غير اضرار بالناس . وحرص على مصالح الجماعة . وتعاون على البر والتقوى . وابتغاء الرزق بالعمل . وكفالة المتعطل والعاجز عن الكسب بالزكاة . وترفع عن الترف والاسراف فى البذخ حتى لا تستنيم الروح لشهوات الجسد. فذلك هو النموذج الكامل للانسان . يحب اخوته فى الله ويوفق بين دنياه وأخراه . ويقهر شرة الحس فى معمانه لا فى صـــومعة بفلاة .. ان ذلك لهو الفوز العظيم..

مع الله فى الأرض . وابتغاء لوجهه فيما تأخذ من الدنيا وما تدع وفيما يعرض لك من المنافع والطيبات . وفيما يتصل بينك وبين الناس من الأسباب .

تلك دعوة الاسلام .

« ولا تنس نصيبك من الدنيا »

أجـــل

ولا تجعلن الدنيا تلهيك عن ذكر الله . اذكره فى كل حين . ولكن عليك فرض من ذكره مفروض ، فى أوقات معلومة من الليل والنهار ، حتى لا تسهو عن ذكره .. وباب النوافل مفتوح بعد ذلك لمن شاء مزيدا من الإحسان :

« أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ! ان قرآن الفجر كان مشهودا . ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » (سورة الاسراء)

« فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . له الحمـــد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » (سورة الروم)

« وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبحه وأطراف النهار ، لعلك ترضى » (سورة طه)

« وأقم الصلاة . ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . ولذكر الله أكبر » (سورة العنكبوت)

• • •

هذا الركن من الدين لا يسمح للمرء أن ينسى ذكر ربه طويلا ، حتى يرده السجود الى الخشوع والتقوى ، فيخرج الى الناس والكدح والسعى فى طلب الرزق وبه اثارة من الحسية تنهاه عن البغى والمنكر . ولا خير فى صلاة بذهن شارد ، وقلب بارد ، لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر :

« قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون » (سورة المؤمنون)

« وانها لكبيرة الا على الخاشعين » (سورة البقرة)

« فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين يراءون .. » (الماعون)

• • •

نظام واحد يمسك الدين والدنيا ، ويسلك المعاش والعبادة والمعاد . ولهذا قلما يرد ذكر الصلاة فى القرآن من غير آثارها العملية ، من اتقاء الله فى الضعفاء ، والاحسان الى ذوى القربى واليتامى والمساكين ، وأداء الزكاة للمعوزين ، والتعفف عن الفسوق ، فجاء فى سورة (المؤمنون) :

« قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون » .

وجاء فى سورة (الذاريات) :

« كانوا قليلا فى الليل مايهجعون . وبالاسحار هم يستغفرون. وفى أموالهم حق للسائل والمحروم »

وجاء فى سورة (المزمل) :

« وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واقرضوا الله قرضا حسنا . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله »

وليست أى صدقة تعد احسانا . كلا !

« قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم . يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس » (سورة البقرة)

وبئس الصدقة ما كان رئاء الناس . وبئس الصلاة ما كانت رئاء الناس فلا تجعله رحيما عفيفا :

« أرأيت الذى يكذب بالدين ؟ فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين . فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ! » (الماعون)

وصلاة هذا شأنها ، تتكرر فى اليوم جملة مرات ، لا يلهى عنها بيع أو شراء . انها اذن لسبب قوى بين الانسان والله ، ومن يفعل ذلك « فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها » (البقرة)

ولكن أين تكون تلك الصلاة ؟ وبواسطة من رجال الدين ؟

هنا تبرز خصوصية الاسلام فى أمر الصلاة التى تقف المرء بين يدى الله جملة مرات فى كل يوم :

كل مكان فى أرض الله الطاهرة يصلح مسجدا ومحرابا . لاهياكل

بعد اليوم . ولا كهانة بعد اليوم . ولا وسطاء بين الله والانسان بعد اليوم . ولا وصاية على ضمائر الناس . فكلهم أمام الرحمن سواء . والصلةبينهموبين ربهمصلةمباشرة لا امت فيها ولا التواء . فمن شاء اتخذ لنفسه سبيلا الى ربه ، « والله سميع عليم » .. وليس من حق كائن من كان أن يتدخل بين المرء وربه ، أو يدعى لنفسه القوامة على ضميره وعقيدته .

وها هنا لابد لى من وقفة .

ان السيد المسيح أعلن الحرب على مظهريات ليهودية ، وهدم شكليات الطقوس . ونادى بعبادة الضمير النقى.. وقال لمن يريد الصلاة أن يدخل مخدعه ويغلقه عليه ليصلى .

انى أعتقد أن المسيح نقض الكهانة ، لأنها تناقض عبادةالضمير والصلة الخالصة المباشرة بين الانسان والله .. وأعتقد أن كل ما التصق بالمسيحية بعد ذلك كان من عمل تابعيه . أما هو فلم يرد فى نصوص أقواله ما يبرر قيام الكهنوت ..

ان من يطلب من الناس أن ينادوا الله بقولهم « يا أبانا الذى فى السماء » ، كيف يمكن أن يجيز وسطاء بين الأب والأبناء ؟

ان قلب المؤمن هو هيكل الله الحق . ولا مكان فى هذا الهيكل الا لضمير صاحبه وايمانه .

ومن أسف أن الفكرة الدينية السابقة على المسيح استطاعت أن تتسلل الى تعاليم المسيح ، وتسبغ عليها طيالسها وطقوسها واحترافها الدين وقوامتها على العقيدة ، ووساطتها بين الرب والعباد .

وكانت نكسة وخيمة ، وكان لابد من مقيل لها يرد البشر الى سواء السبيل ، ويرد اليهم كرامة الرشد ، ويزيل من طريق العبادة الظلال السوداء التى تحتكر ما هو من حق كل انسان ذى ضمير .

برح الخفاء

لم يبق شك فى أن رسالة الاسلام جاءت مناسبة نطور البشرية الطبيعى .

جاءت رسالة الاسلام متلافية أوجه الغموض فى العقيدة الالهية وأوجه العسر والعنت وأوجه اغفال الدنيا وفترة البدن والروح فى كيان واحد .

ثم مع هذا لم يقفل باب الاجتهاد فى السمو الروحى . فما كانت دعوة تهوين أو اسفاف . بل دعوة اتساع فى الأفق وشمول فى النظر . يأخذ كل انسان منها على قدر طاقته . ثم هو متروك فى أمر طاقته لضميره وسريرته ، ان يقول صادقا .

« ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا» (سورة البقرة)

« لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو اخطأنا » (سورة البقرة)

فالمعول على السريرة والنية والصدق . فهذا الدين ـ كما قال رسوله ـ « يسر لا عسر » وهو دين متين « فاوغلوا فيه برفق » .

لا زيف فى هذا الدين اذن ، وهـو ملبى حاجـة البشر كافة ، سوادهم وخاصتهم . لا مسخ فيه ولا اسفاف ، ولا عسر فيه ولا اجحاف . وانما هو « صراط مستقيم لا اعنات فيه للفكر السليم والبداهة السديدة » .

برح الخفاء . وأثبت هذا الدين نفسه دين هداية بالحق ، وارتفاع بقيمة العقل عن الانسياق وراء المعميات والخوارق الغريبة عن طبيعة معدنه فى الاقتناع والتصديق . ورد اعتبار البدن بوصفه هيكل الروح ، فهو ليس مصدر خزى لصاحبه . ولا هو بالرجس وانما الرجس فى مقارنة المحرمات المحددة شرعا . وفى الاضرار بالنفس أو الغير . وبغلبة الشهوة على صاحبها . فصاحب الرسالة هو القائل

« ان لبدنك عليك حقا »

والقرآن يكرر ذلك المعنى فى أكثر من موضع :

« يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا » (سورة البقرة)

« يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم » (سورة البقرة)

« لا تحرموا طيبات ما أحل الله » (سورة المائدة)

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » (سورة الاعراف)

هو دين يسع الناس كافة ، ويهديهم كافة ، ولكن حذار ان يظن ظان أن دعوة الاسلام استهوت الناس بتملق غرائزهم ، أو رشوة منافعهم وأثرتهم ، أو اباحة الأهواء والشهوات . فان ذلك يكون ضلالا كبيرا ، وجنوحا الى عكس مضمون تلك الدعوة

ان الرسالة الاسلامية جاءت تنظيما لحياة الناس ، بحيث يخرجون عن دائرة المنفعة الذاتية والأنانية بكل توابعها من الشهوة أو الهوى ، والقسوة ، والظلم ، والاباحية :

فرضت على المرء أن يعمل ، وجعلت قيمته وشرفه معلقين بعمله ، وسيرى عمله الله ورسوله والمؤمنون .

وفرضت الزكاة على الأموال ، وجعلت للفقير فى عنق الغنى حقا مفروضا هو الصدقة .

وفرضت الصفح والعفو ، ومحت الثأر والشحناء .

وفرضت الصلاة والصيام ، وحرمت البذخ والسرف

وفرضت التواضع وحرمت الخيلاء .

وأحلت الزواج وحرمت الزنا .

وضيقت زواج الجاهلية فجعلت أقصاه أربعا ، وحضت على زواج الواحدة .

وفرضت الاخوة والمساواة . وألغت العصبية والاستعلاء بالنسب والجاه .

وحرمت الخمر ، وكل مايخمر العقل فهو خمر ، فالخمار هو الغطاء .. وكل غطاء للعقل حرام .

وحرمت الفسوق والتجبر والميسر والعدوان على حقوق الناس وأعراضهم .

فلئن قيل ان الاسلام اعترف بحق البدن ، فانما يقال ذلك بوجه معين ، انه لم يغفل عن وجود البدن وفطرة الله للبشر ذوى ابدان ، لا ملائكة من نور . فهو دين حصيف شامل ، لا يرهق الناس من أمرهم عسرا .. ولكنه اذ يمتنع عن العلو فى انكار الجسد ، لا يغلو فى اطلاق العنان له ، بل انه يلزمه حدوده ، ويجعل الزمام فى يد العقل كى يسلك صاحبه مسلكا طاهرا ، يتمتع بالطيبات مما أحل الله ، شاكرا لانعمه ، مبتغيا رضوانه .. فذلك البدن اذن أشبه مايكون بمطية طيبة أحرى براكبها أن يرتحلها الى كل ماهو

طيب ، ويتنكب بها كل ما هو خبيث من المحارم .

فاذا نظرنا الى الرسالة الاسلامية لوجدناها أبعد ما تكون عن شبهة تملق الشهوات ، أو اباحة الاهواء أو رشوة المنافع واللبانات.

كان العرب فى الجاهلية أهل اباحة ، لا وازع ولا رادع. قصفهم مجون . ولهوهم فجور ، وحياتهم عدوان ، وكسبهم سحت ، وليلهم خمر وميسر . فكيف يقال عن دين اقتلع جذور هذا كله ، ووضع الحدود لكل وجه من وجوه النشاط البشرى ، انه استدرج هؤلاء بما تملقه من غرائزهم وما أباح لهم من مباذلهم ؟

ان لم يكن هذا هو التنظيم والتضييق والسمو ، فماذا عساه يكون ؟

ما فعل الاسلام الا أن اعترف للمرء بحق الحياة التى براه الله فيها وركب فيه فطرة حبها وطلبها ، فاستطاع الانسان أن يعيش غير مضطرب أو متأثم من طبيعته السوية ، وقد رسمت له حدود تتفق وواقع فطرته ، وتسمح له بالتسامى ما استطاع . ومن لم يستطع فلا تثريب عليه . وفى رحمة الله الذى خلقه وعرف ضعفه متسع .

ومن سمى هذا التوسيع لباب رحمة الله ، والاعتراف بفطرة الله التى فطر عليها بنى آدم ، اباحة أو تملقا للشهوات ، انه اذن لمغالط أو مخالط . أترى ان قيل للناس لا تتنفسوا يكون ذلك معقولا مقبولا ، وتكون اباحة التنفس تملقا لأهوائهم أو رغباتهم ؟

بل ذلك هو تقدير الاستطاعة ، وعدم قطع الناس عن رحمة الله فلا تكون لهم حجة بعد فى تحدى حدود العقيدة وقد نظرت الى

حقيقة طبائعهم بغير اعنات .. وهذا هو القسطاس انحق فى تنظيم أمور الناس من غير تحيف ، بحيث يطيق كل منهم تسويد العقل والروح على نوازع نفسه . ومن شاء اتخذ الى ربه سبيلا . وما جاء الرسل بالأديان بلاء للناس بل رحمة .

برح الخفاء . والرسالة رسالة حق .

بقى اذن أمر الرسول . وهل هو رسول صدق . فان « الله اعلم حيث يجعل رسالته » . فهل كان الرسول أهلا لهذه الرسالة، جديرا بشرفها العظيم وقدرها الكريم ؟

ذلكم هو موضوع هذه الصفحات .

شجاعة الإيمان

ان أول مقياس يقاس به صدق صاحب رسالة هو مبلغ ايمانه بها متى امتحنته الخطوب ولقى فى سبيلها العنت والبلاء والاضطهاد..

ان الرسالة التى تسير بصاحبها على مهاد من الورد ، ويكون هدفها الغنم له أو لذويه لا تدل على ايمان ، بل على وصولية وطمع أو طموح .

وأيا كان المقياس الذى تقاس به دعوة الاسلام ، فلن نجد فيها دليلا واحدا ولا شبه دليل على أن الغرض منها خدمة شخصه من قريب أو بعيد .

كان موفور الرزق موسعا عليه ، فبدل من ذلك ضيقا وشظفا .

كان آمنا فى سربه ، فبدل من ذلك قلقا ومطاردة وارتياعا .

كان موفور الكرامة والمكانة بين قومه ، بالنسب الرفيع ، والحسب المنيع ، فبدل من ذلك اهانة وتحقيرا وازدراء .

كان وحيدا ، أعزل لا أمل له فى نصرة أحد على قومه ، وهم ائمة الشرك ، وحراس الكفر ، وأولياء عاصمته المستفيدون منه .

أما أهله فما كانت هذه الرسالة بأنفع لهم منه . أوذوا بسببها فى أرزاقهم ، وفى أعمالهم ، وفى أشخاصهم . وتعرضوا لما تعرض له من التهلكة أكثر من مرة .

وما كان مضمون الدعوة حين يكتب لها النجاح ليضفى عليهم شيئا من المنافع . فهذا الدين لا يجعل لرسوله مرتبة فوق مراتب

البشر ، أو حظا من نعيم الدنيا ومتاعها فوق حظوظ سائر الناس فضلا عن آله .

كلا ! فهذه نبوة وليست ملكا . ولا وراثة فى النبوة .

كلا ! بل هذا الدين يمحو ما كان لقبيلة هذا الرسول قبل ذلك من سيادة وامتياز وطيد الأركان . فالناس فى هذا الدين سواسية كأسنان المشط .. وهذا الرسول هو القائل انه لا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى .. وان عصبية الجاهلية موضوعة !

دعوة لا تحمل لصاحبها بموازين الدنيـا جميعا الا الخسران ولا تحمـل لقومه ــ على افتراض نجاحها وظفرها ــ الا ذهاب الرئاسة وضياع الجاه .

بل وحين كتب لهذه الدعوة الظهور وتم الفتح المبين ، لم يظفر صاحبها بمغنم ، ولم يكن حظه من اقبال الدنيا الا أقل من حظ عامة جنده وفقراء رعيته . لم يجعل لفئة من الناس فضلا على فئة .. بل صار الأمر كله للمؤمنين كافة .

لا منفعة اذن ولا شبه منفعة لصاحب هذه الرسالة من بداية دعوته حتى المنتهى . ولا تسخير للدعوة لخدمة مآرب ذاتية أو أهواء حزب من الناس أو فئة . وصح اذن انه ما كان ينطق عن الهوى « وما ضل صاحبكم وما غوى » .

هى من هذا الوجه دعوة مبدأ وايمان ، وليست مطية هوى

هذا الايمان بماذا يقاس ان لم يكن مقياسه الثبات عليه فى أشد الظروف حلكة وأدعاها لليأس ؟ وان لم يكن مقياسه الصبر

فى سبيله على المكاره ؟

وانها لمكاره من كل نوع . لعل المعنوى منها أقسى من المادى . ولعل حرج النفس فيها أعتى من الضرب والايذاء البدنى بالغا ما بلغ من العنف .

لم يساوم هذا الرسول ولم يقبل المساومة لحظة واحدة فى موضوع رسالته ، على كثرة فنون المساومات ، واشتداد المحن .

وهناك موقف مشهور جدا من تلك المواقف ، هو موقفه من عمه ابى طالب حين قال له ان قريشا تشدد عليه النكير بسبب دعوة ابن أخيه الذى يبسط عليه حمايته . وانه — على كبر سنه — مهدد باجتماعهم على مقاطعته وعداوته . وقد قالوا له :

— انا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله واياك حتى يهلك أحد الفريقين .

وتقدم عمه اليه بقوله :

— فأبق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق .

فهذا عمه ، حصنه الأوحد وحاميه يوشك أن يتخلى عنه . ولن يكون بعد ذلك الا الهلاك له هلاكا مؤكدا .

هذا ، أو يحرج عمه ويبقى على حمايته له ، فيتعرض معه للهلاك فى تلك المعركة التى لا تكافؤ فيها .

وعمه .. من عمه ؟

انه الذى كفل وربى بعد هلاك الجد ذلك الفتى اليتيم . انه الذى دلل وأعز هذا اليتيم . وأردفه على راحلته حين تعلق به

الصغير وقد تجهز للسفر الى الشام ، فلم تطاوعه نفسه أن يفارقه باكيا ، وصحبه حيث ذهب .

ومحمد أوفى الناس بالمعـروف ، وأحفظهم للوداد ، وأبرهم وأقسطهم . أى حرج شعر به أمام ذلك الرجاء . أى تورط . أى امتحان لخلال البر وعرفان الجميل والنخوة ؟

لو كان شيء من الأشياء ثانيا محمدا عن ايمانه ، لكان هذا الحرج ، ولو كان الأمر بيده بأى صورة من الصور لما صمد لهذا الامتحان . ولو كانت قوة لتزعزعه عما تجرد له لكان هذا التوسل من ابى طالب .

ان الامتحان النفسى فى هذا المقام ، والاكراه المعنوى والضغط الأدبى لهو أعنف ألف مرة من اللطمات والبصقات التى كيلت له من سفهاء القوم .

وأطرق محمد . وما أحسب فرض هلاكه كان أهول لديه من تخييب رجاء عمه وكافله . فحق لمن فى مثل نخوته وبره أن يطرق ويهتم . وهو يتعرض لتهمة العقوق .

ثم كانت الكلمة التى لا تنطلق الا عن منتهى شجاعة الايمان ورسوخ اليقين بما هو بسبيله :

ـ يا عم ! والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته ..

من كابر فى صدق هذا الايمان ، فهو مسكين لا يميز الايمان من الدجل ولا الصدق من الهزل .

ولم يخذل العم الشهم الكريم ابن أخيه ، بل ثابر على نصره

ومنعه وقال له مأخوذا بذلك الايمان :

ــ اذهب يابن اخى فقل ما احببت . فو الله لا اسلمك لشىء تكرهه أبدا !..

واحتمل آله العنت بسبب ذلك .. فكان فضل ابى طالب مضاعفا بعد هذا اليوم الفاصل .

ثم يحضر الموت هذا العم النبيل الذى غمره بحنانه وحمايته واحسانه صغيرا وكبيرا ، حدثا وكهلا مطاردا مبغوضا .. فاذا بالرسول يطالبه بأن ينطق بالشهادة كى يستحل الشفاعة له بها يوم القيامة .. فيأبى على أبى طالب حفاظه وخشية أن يرمى بشبهة الجبن أمام الموت والضعف أمام وعيد يوم الحساب .

وتحشرج الروح ، ويميل على أبى طالب أخوه العباس يسمع مايهمس به فى لحظته الأخيرة ، ثم يقول العباس لابن أخيه ان المحتضر نطق بالشهادة وهو فى الرمق الأخير ..

وعلى شدة حبه لعمه الراحل ، وتعلقه به ، ورغبته فى نجاة نفسه لقاء ما أحسن اليه ونافح عنه ، لم تتحرك فيه خالجة ، وقال بجمود الراسخ : انه لم يسمع .

وغيره فى مثل هذا الموقف كان حريا أن يبادر الى التصديق على عهدة الراوى ، وهو عمه العباس . كى يجد فى ذلك عزاء وسلوانا وراحة الى أن عمه وكافله المحبوب لم يمت كافرا ، وليس مصيره جهنم ذات السعير .

ولكن شجاعة الايمان تأبى عليه هذه الراحة التى كان وزرها على سواه . فحيثما تعرض الأمر لدعوته وعقيدته ، فلا محل

لمجاملة ، مهما قويت بواعثها من كرائم الخلال .

أهذا شأن من يملك من الأمر شيئا ؟ أهذا شأن من لا تسيطر عليه قوة قاهرة ، أقوى من مراده وهوى نفسه ، هو ازاءها العبد المأمور ؟..

لذلك حقا هو الرسول الأمين ، الذى يقول له ربه « ليس لك من الأمر شىء »

• • •

لا مساومة ! وكيف يساوم من لا يملك من الأمر شيئا ؟

ها هو ذا يدعو القبائل فى موسم الحج الى ربه ، يقف بمنازلهم، فمنهم من يعرض ومنهم من يسخر . وها هو يقف يوما على منازل بنى عامر ، ويتكلم فى يقين وبسلطان .. وأى سلطان أعلى من سلطان اليقين بالعزيز ذى الجلال ؟

ويبهر كبير القوم بما سمع ، ويراها فرصة يجدر به أن يهتبلها عسى أن تكون لقومه بذلك الداعى رئاسة أو يحدث لهم ذكرا وجاها . فيقول له :

ــ اى محمد ! أفان تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟

مساومة معقولة لدى أمرىء يعرف المساومة فانه يطلب الى قوم أن يتبعوه ويمنعوه حتى يبلغ أمانة الله ويؤمن به الناس كافة . وفى ذلك من البلاء والمشقة ما فيه . بل فيه من الهلاك للأنفس والأموال ما فيه . وفى منطق المساومة وتبادل المنافع لا بد من مقابل لكل خدمة تؤدى أو منفعة ترجى .. فليكن الأمر اذن كما يطالب

به شيخ بنى عامر . فهو عرض معقول ، يصلح أساسا على كل حال للمدارسة بين الطرفين .

ولكن محمدا لا يساوم .

ولكن محمدا غير مأمور ليس له من الأمر شيء ،

ولكن محمدا لا يرى الايمان بالله منة للمؤمنين على الله ورسوله، بل منة لله على المؤمنين ، هداهم من ضلال . ونصر الله حق عليهم كفاء هذا الفضل العميم . وشتان هذا المنطق ومنطق المساومة .

وكان محمد وحيدا لا يكاد يجد لدعوته سميعا .

وكان محمد مطاردا لا يجد مانعا ولا نصيرا ،

ولكن محمدا لم يقبل المساومة فى أمر هو من شأن الله وحده ، وهو لا يملك من الأمر شيئا :

ــ الأمر الى الله يضعه حيث يشاء !

ما هذا قول مغامر مساوم مداور . هذا قول لايصدر الا عن شجاعة ايمان نادر . سلطان ايمانه عليه قاهر ، لا حيلة له فيما يأخذ وفيما يدع .

• • •

وأكثر من هذا لا يهتز له ايمان محمد .

هؤلاء ذؤابة قومه قريش يجتمعون عند الكعبة ويرسلون اليه. ويقول قائلهم له :

ــ يا محمد ! انا واللات مانعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك . فان كنت انما جئت بهذا الحدث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وان

كنت انما تريد به الشرف فينا فنحن نسودك علينا . وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا . وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك ، بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك .

هو اذن ملك حاضر بغير عناء أو جهاد أو انتظار . وثراء ماثل لا ضرورة معه لجهد أو اصطبار ، فما يبتغى مغامر تفعى سوى ذاك؟

وأى مساومة هذه ؟ انها أشبه بالتسليم المطلق من كل قيد ، الا أن يدع ما هو بسبيله من الدعوة .

ودون هذا خرط القتاد .

ودون هذا شجاعة الايمان التى ما كان عن سواها يصدر جوابه على تلك المساومة التى يسيل لها اللعاب .

ــ مابى ماتقولون ! ماجئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم . ولكن الله بعثنى اليكم رسولا وأنزل على كتابا . وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم . فان تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة . وان تردوه على ، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم !

كلام العبد المأمور الذى ليس له من الأمر شىء . كلام الرسول المكلف بالبلاغ الأمين ، ولا مأرب له من وراء دعوته ، وقد استنفدت المآرب فى ذلك العرض الذى شمل كل شىء ، من الجاه العريض الى الملك العضوض .

ولكن معاذ الايمان ، وشجاعة الايمان .. ما الملك ؟ وما الجاه ؟

وما الثراء ؟

هباء هى أو أهون من الهباء .

وفى أى وقت يقول هذا ؟ وفى ثبات من لا يشعر أنه يفعل أمرا خارقا أو يهم بمقاومة اغراء تحشد الحماسة من جوانب النفس لملاقاته ؟

فى وقت عز فيه النصير ، وطارده السفهاء بالأذى فى قريش وغير قريش أينما ذهب يقوم بأمانة الدعوة . حتى بلغ منه الضيق مبلغه وحزبه الأمر ، وصاح ذات يوم بصوت يخنقه البكاء :

ــ اللهم اليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ! أنت رب المستضعفين وأنت ربى ! الى من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى ام الى عدو ملكته أمرى ؟ ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ! ولكن عافيتك هى أوسع لى ! أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك . لك العقبى حتى ترضى . ولا حول ولا قوة الا بك !

أى شيء هذا ان لم يكن غاية الغايات من شجاعة الايمان ؟

ضرب وشج وتحقير فى كل مكان . حتى يصرخ هذه الصرخة من قلب صديع ، ثم لا يعنيه من ذلك شيء ، سوى خوفه أن يكون بالله عليه غضب ! فالا يكن ربه غاضبا عليه ، فهو لا يبالى !.. ثم يمنى بانقلاب الحال الى ملك مؤثل وثراء متدلل ، فلا يفكر فى شيء من ذلك طرفة عين ، ويعرض عنه بغير مبالاة ، الا البلاغ الأمين.

فالا يكن هذا هو الصدق الصادق ، فقد ارتكست مقاييس تجعل

من صاحب هذه المواقف ومثيلاتها مساويا مغامرا طالب مغنم .

وسلام على المنصفين المقسطين الذين لا يجرمنهم شنآن قوم على ألا يعدلوا .

وسلام على الصادقين .

لا ادعاء

من لم يكن صادقا في دعواه ، فهو دعي . لا يسلم من أعراض الادعاء مهما تصنع الصدق .

وتجتمع أعراض الادعاء في انتحال صفة أو قدرة أو حق ليس للمرء حقيقته .

وما كذلك كان ابو القاسم .

لم يزعم لنفسه قدرة أو صفة أو حقا يستعلى بها على أحد ، أو يرتب لنفسه بها سلطانا أو تقديما .

ولو كان القرآن من صنعه ما حرص على أن يكون فيه كآحاد الناس لا يزيد . ليس عليه الا البلاغ .

عليه البلاغ . ولكن أى شيء له ؟

لا شيء . ثم لا شيء . ثم لا شيء

« ليس لك من الأمر شيء »

« فذكر انما انت مذكر . لست عليهم بمسيطر » .

« وما أنت عليهم بجبار » .

امرؤ عليه وليس له .

أين من ذلك دعوى الادعاء ؟

ولما طولب بالمعجزات لم يتوجه الى ربه يسأله أن يؤيده بخارقة بل خوطب مأمورا بما يقول لهؤلاء :

قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله . ولو كنت

أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء . ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (الاعراف)

« قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى ملك . ان أتبع الا ما يوحى الى » (الانعام) .

لا دعوى ولا ادعاء . ولا مظاهرة من الخوارق والبوارق . وانما الهداية الى ما تطمئن به النفس ويستريح اليه العقل :

« قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ؟ » (الانعام)

« أفلا تتفكرون ؟ »

بحجة الفكر الناشط من عقاله تقدم أبو القاسم الى الناس ، ولا حجة له سوى هذا . فما هو بصاحب معجزات . ولا هو يمنى الناس بخزائن لا يملك مفاتيحها الا الله . ولا يعدهم بدفع السوء عنهم وهو غير قادر على دفع السوء عن نفسه . ومن لم ينفعه عقله فى الاهتداء الى سواء السبيل وتمييز الحق من الضلال لهو أعمى. ومايستوى الأعمى والبصير. وليس بنافعه اذن خوارق المعجزات.

***

بل ان هذا الرسول حينما وقعت له تجربة الوحى أول مرة وهو يتحنث فى غار حراء صائما قائما يقلب طرفه بين الأرض والسماء، جياش النفس منقطعا عن أهل مكة بما هم منصرفون اليــه من الدنيويات والقصف والمتاع الحسى الغليظ ، لم يأخذ هذه التجربة مأخذ اليقين ، ولم يخرج الى زوجه خروج الواثق بها المتلهف على شرفها . بل ظن ذلك فى أول مرة رؤى من الجن . وارتعدت فرائصه من الروع وقد ثقلت على وجدانه تلك التجربة الفــذة

الخارقة ، ودخل على خديجة وكأن به رجفة الحمى فدثرته ونام مطمئنا الى أمومتها الحانية بعد أن وعدته بالرجوع الى قريبها ورقه بن نوفل وهو من نصارى العرب .

واستيقظ محمد فصحبها الى هناك وقص على الشيخ الكتابى ما وقع له فى الغار من الرؤية والسماع .. وأطرق الشيخ هنيهة ثم قال لقريبته خديجة :

ـ قدوس قدوس ! والذى نفس ورقة بيده لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى .

واطمأن محمد قليلا ، ثم تراءى له الوحى وهو فى سنة من النوم فثقل تنفسه وتفصد جبينه بالعرق ونزلت عليه سورة المدثر :

« يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر »

ونهض محمد مرتجفا مأخوذا . ورأت خديجة ما به من روع فدعته الى النوم ليصيب شيئا من الراحة فقال :

ـ انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة . فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس . وأن أدعوهم الى الله والى عبادته . فمن ذا أدعو ؟ ومن ذا يستجيب لى ؟

وليس هذا حال دعى يلفق دعوى للناس لا يؤمن بها . ليس هذا حال المتصدى لأمر عن هوى . ليس هذا حال ملفق دجال . بل هذا حال رجل متحرج لا يريد أن يصدق ما تراءى له الا ببرهان ويقين . فقد فوجىء بما وقع له وتولاه الروع والفزع .

هو اذن تكليف لا تأليف .

وهو تكليف مر شاق . ألست ترى هذا المرفه الناعم فى ظل زوجة هى أشبه له بالأم ، يقول لها فى حسرة وأسى :

ـ انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة !؟

ألست ترى هذا المتحسر المروع حائرا لا يدرى ما يصنع بهذا التكليف : من ذا أدعو ؟ ومن ذا يستجيب لى ؟

ماهذا قول مغامر دعى أفاق يلتمس مغنما ويرسم خطة للكسب أو يهتبل فرصة مواتية للظفر . بل هذا قول من يرى نفسه مأمورا بما لا يكاد يطيق ، والطريق أمامه مسدود . فمن ذا يدعوفىعاصمة الأوثان الى عبادة الله ؟ ومن ذا يستجيب له بين سدنة تلكالأوثان ؟ وان هـذا الحائر المتحسر لا يدرى بعـد خطـورة ما هـو بسبيله شأن من دبر أمرا وبيته بليل وحسب حساب العواقب . وانما هو فارغ الذهن من ذلك كله . لا يحزبه الا من يدعوه الى ربه ومن ذا عساه يستجيب لتلك الدعوة التى ألقيت على كاهله القاء . فلما قال له ورقة بن نوفل :

ـ ليتنى أكون حيا اذ يخرجك قومك ، اذن لأنصرنك نصرا مؤزرا ..

قال محمد متعجبا :

ـ أو مخرجى هم ؟

فقال له الرجل المجرب المطلع على تاريخ الأنبياء :

ـ لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودى . وان يدركنى يومك لأنصرن الله نصرا يعلمه .

« او مخرجى هم »

كلمة كافية وحدها للكشف عن مدى خلو باله من غاية الشوط الذى أمر ان يأخذ فيه . وانه لم يفكر فى ذلك من قبل ولم يعد له عدته . ولم يوازن بين فرص الربح وفرص الخسران وبين جانب الفوز وجانب الخذلان ، وبين الثمن الذى يزمع أن يدفعه سواء خذل أو ظهر .

أجل هذه الكلمة وحدها عنوان براءة محمد من تهمة الادعاء والتدبير المبيت لما يزعمه وحيا وتكليفا ، لو نظر فيها من له قلب سليم من الاهواء .

• • •

وشرع محمد كما أوحى اليه ينذر عشيرته الأقربين ، وآمنت خديجة به فكانت أول المؤمنين . ثم انتظر محمد أن يدله الوحى على ما يفعل لانذار الناس ومحاجتهم وهدايتهم . فاذا الوحى يبطىء عليه . حتى ظن أنه كان مخدوعا فيما تراءى له من قبل ، أو أن ربه انصرف عنه بعد ان اصطفاه . وتملكه فزع ووجل .

وطال انقطاع الوحى ، وهو حائر يتردد بين حـراء ودروب الصحراء . واشتد الأمر حتى ان خديجة نفسها ــ وهى أحفظ الناس لشعوره ــ قالت له :

ــ أرى ربك قد قلاك .

وقر ذلك فى قلب محمد ، فحزن . وهم أن يقتل نفسه يأسـا وجزعا من قلى ربه له . لولا أن ظهر له الوحى ، نزلت عليه سورة الضحى المشهورة .

« والضحى . والليل اذا سجى . ماودعـك ربك وما قلى .

وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا فأغنى . فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث»

عجبا ! فيم هذا العذاب كله لو كان محمد واضع هذا القرآن، دعيا ملفقا ؟ ما كان أغناه عن فضيحة فتور الوحي لو لم يكن أمينا غير متصنع ولا مموه . وانما هو الصدق الصراح بغير تعديل أو تحوير ؟..

• • •

ثم مسألة الروح :

سأله القرشيون خارقة ، فقال « ان أنا الا نذير وبشير » ..

فسألوه عن الروح ماهي ؟.. فقال لهم :

ـ أخبركم بما سألتم عنه غدا ..

ثم يمضي نيف وأسبوعان ومحمد لا يأتيهم بخبر الروح كما وعد ، وما عهدوه من قبل مخلفا . ولا سيما وهو اليوم في مقام التحدى لصدق دعواه .

وأبطأ الوحي . ومحمد مكروب لهذا الابطاء . يتوسل ويتحنث ويتفرغ الى الله أن يرفع عنه هذا البلاء وينزل اليه وحيه ليرفع بين المشركين رأسه .

وما ان يظهر جبريل أخيرا حتى يعاتبه محمد لاحتباسه عنه ويصارحه أنه ساء ظننا لذلك الاحتباس فيكون الوحي :

« وما نتنزل الا بأمر ربك . له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك . وما كان ربك نسيا . ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا

الا أن يشاء الله . واذكر ربك اذا نسيت . وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا . ويسألونك عن الروح . قل الروح من أمر ربى . وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

ما كان أغناه عن هذا الكرب وهذا البلاء . وتعرضه لسخرية قريش وقد وعدهم الجواب غدا ، لو كان يملك القول من نفسه ، ولم يكن الأمر لربه ؟

« وما تتنزل الا بأمر بك »

« ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله »

تأنيب واضح ، يرد الأمر الى من بيده الأمر . وما هو بقول دعى ، وما هو بمسلك المستقل بشأنه . وانما هو المأمور ، الصادع بالأمر ، الصادق فى أمانة البلاغ المبين .

• • •

وما من دعى الا وهو مطية الشعور بالنقص ، فيدفعه ذلك الى المغالاة فى شأن نفسه ، والتزيد فى مدى قدرته .

وما كذلك كان محمد !

مر بقوم على رؤوس النخل ، فقال :

ـ ما يصنع هؤلاء ؟

فقالوا :

ـ يلقحون ، يجعلون الذكر فى الانثى فتلقح

فقال :

ـ ما أظن يغنى ذلك شيئا .

فاخبروا بذلك فتركوه صادعين برأى الرسول . ونقصت غلة

النخل ذلك العام وخرج شيصا ، فذكروا له ذلك فقال :

ــ انما أنا بشر . اذا امرتكم بشيء من دينكم فخذوا به . واذا امرتكم بشيء من رأيي فانما أنا بشر . أنتم أعلم بأمور دنياكم !

وقيل انه قال :

ــ انما ظننت ظنا . فلا تؤاخذوني بالظن !

لم يرتج عليه . ولم يكابر . و لم يسوؤه أنه أخطأ الظن . بل اعترف أنهم أعلم بشئون دنياهم . وما هكذا يكون موقف دعي يستولي عليه شعور النقص وهو أبين الأمراض التي تنتاب الأدعياء

وأكثر من هذا :

سمع قوما يختصمون ببابه ، فخرج اليهم . واذا به وهو الرسول المسموع المطاع يومئذ يقول لهم :

ــ انما أنا بشر . وانه يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق فأقضي له بذلك . فمن قضيت له بحق مسلم فانما هي قطعة من النار فليأخذها أو يتركها :

انما أنا بشر ! أخطيء وأصيب .

تلك مقالة من لا يخطر له الادعاء ببال . وانما هو يذكر ويذكر دواما أنه كسائر الناس . وهكذا الصادق الذي لا يشغله تمويه حقيقته ليبدو أفضل مما هو .

وسلام على الصادقين .

الجهاد الأكبر

الجهـاد الأكبر جهاد النفس .

هو قائلها . وانه فى ذلك الجهاد لفارسه المعلم ، وبطله الذى لا يشق له غبار .

روى عن ابن عمه وزوج ابنته الامام على بن أبى طالب أنه سأله عن سنته فقال له :

« المعرفة رأس مالى .
« والعقل أصل دينى .
« والحب أساسى .
« والشوق مركبى .
« وذكر الله انيسى .
« والثقة كنزى .
« والحزن رفيقى .
« والعلم سلاحى .
« والصبر ردائى .
« والرضا غنيمتى .
« والفقر فخرى .
« والزهد حرفتى .
« واليقين قوتى .

« والصدق شفيعى .
« والطاعة حسبى .
« والجهاد خلقى .
« وقرة عينى فى الصلاة . »

وهى سجايا نجدها فى صفحات تلك الحياة الحافلة كلما قلبنا منها صفحة فى اثر صفحة . ولعل أبهرها للمتفحص جهاده لنفسه ، وتواضعه الجم أمام فتنة الدنيا وغرورها ، وازاء ما أفيض عليه من سلطان لا معقب عليه لأحد .

رجل فرد هو لسان السماء . فوقه الله لا سواه . ومن تحته سائر عباد الله من المؤمنين . ولكن هذا الرجل يأبى أن يداخلهمن ذلك كبر ، بل يشفق ، بل يفرق من ذلك ويحشد نفسه كلهالحرب الزهو فى سريرته ، قبل ان يحاربه فى سرائر تابعيه .

ولو ان هذا الرسول بما انعم من الهداية على الناس وما تم له من العزة والأيادى ، وما استقام له من السلطان ، اعتد بذلك كله واعتز ، لما كان عليه جناح من أحد ، لأنه انما يعتد بقيمة ماثلة ، ويعتز بمزية طائلة .

يطريه أصحابه بالحق الذى يعلمون عنه ، فيقول لهم :

ـ لا تطرونى كما اطرت النصارى ابن مريم . انما أنا عبدالله، فقولوا عبد الله ورسوله .

ويخرج على جماعة من أصحابه فينهضون تعظيما له ، فينهاهم عن ذلك قائلا :

ـ لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا !

ويمرض المريض من أدنى الناس فيعوده . ويموت طائر يلعب به طفل هو اخو خادمه فيعزيه فى مصابه . وقد يدعوه عبد أو مسكين الى طعام فلا يمتنع . ويداعب الأطفال من أبناء تابعيه وأصحابه ويجلسهم فى حجره . ويمازح أصحابه ويتبسط فى الحديث معهم . ويعنى نفسه بقضاء حاجة الفقير والضعيف . ويؤاكل خدمه ويشاربهم ، ويحمل عنهم بعض أعباء عملهم فى البيت وغير البيت .

وكان حفيده الحسن بن على من فاطمة الزهراء يركب ظهره وهو يصلى بالناس ساجدا ، فيظل على سجوده حتى لا يعجله لينزل عن ظهره !

وقد ينهض لخدمة ضيوفه بنفسه تزيدا من اكرامهم . كما فعل بوفد نجاشى الحبشة .

وذلك هو الرسول الذى خاطبه ربه فى القرآن قائلا :

« واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين »

وأى خفض جناح أكثر من عدله وقصاصه من نفسه كلما كان لأحد لديه حق ؟

فها هو ذا فى يوم بدر ، والمعركة غير متكافئة بين المسلمين وقريش . وهى بعد أول معركة يخوضها المسلمون . وعليها يتوقف مستقبل الدعوة كله ، لأن قريشا ـ على حد قول الرسول وهو يتضرع الى ربه يسأله النصر ـ « قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحارب وتكذب رسولك » .

فى هذه الموقعة ، والموقف متحرج غاية الحرج ، أخذ النبى يسوى

الناس صفا صفا ، ليستقبلوا العدو على تعبئة ونظام . وكان فى يده عود يشير به الى من يأمره فيتقدم أو يتأخر ليستوى الصف .

وخرج رجل من سواد الجند عن الصف ، اسمه سواد بن غزية، فدفع النبى بالعود فى بطنه ليستوى . فقال له سواد :

ـ يا رسول الله أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل ! فأصبرنى يا رسول الله ومكنى من نفسك لأقتص منك !

ـ أصبر !

ووقف النبى متمهلا كى يقتص منه سواد دفعة فى البطن بدفعة فى البطن . ولكن الرجل قال :

ـ ان عليك قميصا وليس على قميص !

فرفع الرسول قميصه عن بطنه متأهبا للقصاص من نفسه !

وليس يعنينا ان الرجل لم يقتص من النبى ، بل عانقه وقبل بطنه العارى ليكون مس جلده آخر عهده بالدنيا .. فما كان الرسول يتوقع هذا ، بل كان يتوقع المقاصة التى تهيأ لها عن طيب خاطر !

• • •

وتحضر النبى الوفاة . وقد هدى الناس وأمهم ، « وما كان براعى غنم يتبع بها رؤوس الجبال بأنصب ولا أدأب منه فى المسلمين » كما قال عمه العباس . فلا يعنيه فى آخر خطبة له بالمسجد وقد تحامل على نفسه وبرز الى المسجد الا أن يقول :

ـ أيها الناس ! الا من كنت جلدت له ظهرا ، فهذا ظهرى

فليستقد منه ! ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ! ولا يخشى الشحناء من قبلى فانها ليست من شأنى . الا وان أحبكم الى من أخذ منى حقا ان كان له ، أو حللنى فلقيت ربى وأنا طيب النفس !

ما أعظم وما أروع !

ما من مرة تلوت تلك الكلمات أو تذكرتها الا سرت فى جسمى قشعريرة ، كأنى انظر من وهدة فى الأرض الى قمة شاهقة تنخلع الرقاب دون ذراها .

أبعد كل ماقدمت يا أبا القاسم لقومك من الهداية والبر والرحمة والفضل ، اذ أخرجتهم من الظلمات الى النور ، تراك بحاجة الى هذه المقاصة كى تلقى ربك طيب النفس . وقد غفر لك من قبل ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

ولكن العدل عندك مبدأ ، وليس غاية ، العدل عندك خلق ، وليس وسيلة .

وعسير بلوغ هاتيك جدا   تلك عليا مراتب الأنبياء

• • •

وزهدك يا محمد ؟

زهدك وقد أحلت لأمتك الطيبات ، وجعلت اليك ؟

هذه أم سلمة زوجك تصف ما وجدته فى دارك ليلة عرسها :

ـ نظرت فاذا جرة فيها شىء من شعير ، واذا رحى وبرمة وقدر وكعب . فأخذت ذلك الشعير فطمنته . ثم عصدت البرمة . وأخذت الكعب فأومته . فكان ذلك طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعام أهله ليلة عرسه !

وكل كلام بعد هذا الوصف الساذج الصادق فضول غث فى التعليق على زهد الرجل الذى لم يؤت أحد فى زمانه سلطانا على أصحابه كما أوتى . لولا أنه يرى برهان ربه رأى العين ، فتصغر فى عينه الدنيا وما فيها .. ويؤثر على نفسه ولو به خصاصة . ويؤثر على آله ولو بهم خصاصة . ولا يدخر لغده شيئا .

أليس قد مات ودرعه مرهونة عند يهودى فى قوت عياله ؟

ومن هو ؟

هو السيد غير منازع ، وقد أوتى الفتح المبين . وعنت له رؤوس المعاندين . ولكنه كان مشغولا بأن يسود نفسه لا بأن يسود الناس.

لهذا كان ينام على حشية من ليف . ولم يبلغ من طعام حد الشبع . ولم يطعم خبز الشعير يومين متواليين ، وجل طعامه التمر. لا يتفق له ولآله اكل الثريد كثيرا . وكم من مرة ربط على بطنه حجرا ليقاوم الجوع حين يشتد عليه .

وهذه عائشة أصغر زوجاته وآثرهن لديه بعد خديجة تصف طعام زوجها العظيم الذى لم يؤت كسرى ولا قيصر مثل سلطانه على قومه :

« لم يأكل النبى خبزا مرققا ولا أكل خبزا نقيا . وقد جاءت اليه فاطمة ابنته يوما بكسرة خبز فقال :

ـــ ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟

قالت :

ـــ قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى آتيك بهذه الكسره .

فقال صلى الله عليه وسلم :

ـ اما انه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام ! »

ودخل ابو بكر بيت النبى ليــلا ، فلم يجد سراجا ، فســأل ابنته عائشة :

ـ اما لكم سراج ؟

فقالت :

ـ لو كان لنا ما نسرج به أكلناه !

وماذا يسرج به ؟ الدهن أو الزيت . وذاك ماكان يعوز نبيا وهو لا يعوز أفقر أتباعه الذين يفدونه بالنفس والنفيس .

قمة شاهقة فى الزهد لا يطيقهــا كثيرون . فلا عجب أن نرى زوجاته يتضجرن بهذا الضيق ، وهو الذى يملك خمس الغنائم بشريعة القرآن ، فيهلك ذلك فى الصدقات ولا يستبقى لآله من الطيبات شيئا ، حتى يتحسرن على ما يوقد به السراج ليأكلنه عسى أن يرد عنهن غائلة الجوع . وهن يرين زوجات أدنى المسلمين شأنا أوسع منهن رزقا وأحظى بالرفاهة والزينة .

وصارحنه بما فى نفوسهن من الضيق بهذا الضنك ، فآلى أن يعتزلهن جميعا شهرا من الزمان ، حتى تحدث الناس أن النبى طلق أزواجه .

وذهب النبى فعلا يخيرهن بين الطلاق والرضى بما أخذ نفسه به من المعيشة !

وليس يعنينا ها هنا أنهن جميعا اخترن الحياة معه على الوجه الذى يريد لنفسه ولهن ، فما كان يدرى شيئا من هذا حين خيرهن ذلك الخيار . بل كان موطنا نفسه على أنهن قد يخترن ما تصبو

اليه نفوسهن من زينة الحياة الدنيا .. وكان مسعدا لهذا الموقف ، مؤثرا زهده على كل شيء !..

وعمر الزاهد المخشوشن ليس فى زهده الا تلميذا لهذا الزاهد المطبوع . وقد رآه يوما وقد أثر فى جنبه الحصير الذى يفترشه لنومه ، فقال له :

ــ يارسول الله ! قد أثر فى جنبك رمل هذا الحصير ، وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لايعبدون الله ؟

فاستوى النبى جالسا وقال :

ــ أفى شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم فى الحيــاة الدنيا !

ذلكم هو الرجل الذى كان الزهد عنده طبعا لا ضرورة . وغنى نفس لا فقرا وعجزا ... فانه كان أقدر القادرين على البذخ ، لولا أن الاقتدار على نفسه كان مقدما عنده على الاقتدار على المناعم والطيبات .

• • •

وفتنة السلطان يا أبا القاسم ؟

ماعرفت شيئا يغير الرجال ويمتحن معادنهم مثل فتنة السلطان . وما رأيت رجلا ــ الا الأقل الأقل ــ لم تغيره بوادر النفوذ ، ولم تدر رأسه خمر السلطة ... فاذا خيلاء وحيد تتغنى له النفس ، حتى ليصدقنى فيهم قول القائل أنهم ينحطون باطنا كلما ارتفعوا ظاهرا . وان فيهم الفتى الغر الذى لايحس من أمر نفسه شيئا ، فضلا عن أمور الناس ، وينتفش بما ألقى اليه من فتات الأمر

والنهى كأنه الديك الرومى ، أو يتثاقل فى خطوه وقد برز صدره ورأسا ، كأنه شتربة يتأهب للنطاح !

وما سلطان هؤلاء الأغرار الهلافيت فى جانب ما أوتيت أنت من السلطان يا أبا القاسم ، يالسان السماء ، وياحاكم الدنيا ، ويامن لا يعلو سلطانك على أتباعك من بنى آدم سلطان ، فليس فوقك الا المهيمن الأحد ؟

هباء سلطان أولئك جميعا مهمـا علوا واستطالوا الى جانب سلطانك ، أو أهون من الهباء ...

وما فتنك سلطان . وقد انتهيت من العنت والبأس والحصـار والمطاردة ، الى النصر المؤزر ، والفتح المبين والطاعة العميـاء والسؤود الذى لم ينبع لأحد من قبل ولا من بعد !

يسمع الابن البكر أنك وجدت على أبيه ذى الأيد والبأس ، فيأتيك يسألك الرخصة أن يضرب عنقه ، فهو أولى بذلك من سائر الناس ، لتكون لك به قرة عين ولا يلوك الناس الأمر بين مجند أو متردد ، متى رأوا الابن هو الذى أقر قتل الرجل وبادر اليه . ثم تأبى أنت وتعفو وتصفح عن ذلك الغادر المتآمر كرامة لولده الطائع .

الى هذا المدى بلغ سلطانك ، وناهيك به من سلطان . فما دار لك رأس ، ولا ركبتك خيلاء ، ولا أصابك تيه وزهد ! بل كنت تمشى فى الأرض هونا ، وتزداد مع نمـو سلطانك تواضعا لله وخفض جناح للمؤمنين ! وكنت تقول وتعيد القول لا تمل من تكريره :

ـــ انما أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبـد !

وتذهب مع أبى هريرة الى السوق فتشترى لنفسك سراويل ، ويثب البائع الى يدك ليقبلها ، فتجذب يدك من يده مستنكرا وتقول له :

ـــ هذا تفعله الأعاجم بملوكها . ولست بملك ، انما انا رجل منكم ...

« رجل منكم »

وما كان ملك من ملوك الاعاجم أو غير الاعاجم أبعد منـك نفوذا فى قومه ، ولا أمضى كلمة وسلطانا منك فى رعاياه .. ولكنها عصمة الله التى عصمك بها من فتنة ذلك السلطان ، وانه لكبير.

كبير أجل أمر ذلك السلطان ، وكبير أجل ما قام عليه من الحق والهدى والفضل العميم ... ولكن لباب المسألة كلها أنك كنت أكبر من سلطانك هذا الكبير . ولم يكفك أن ترى نفسك أجل من خيلاء تقبيل اليد ، فاذا بك تقول لأبى هريرة وقد تقدم يحمـل عنك ما اشتريت :

ـــ صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله !

« رجل منكم »

ذلك ما أردت لنفسك ، وما أرادته لك خلة التواضع السمح ، بل أراده لك صدق الايمان بأن لله الامر جميعا ، وأن ليس لك من الأمر من شيء !

ويأتيك الرجل من الأعراب ليبايعك يوم الفتح الرهيب ، وأنت

فوق قمة السلطان ، فتأخذه الرهبة بين يديك ويرتعد ، فتأخذك من ذلك دهشة رائعة فى بساطتها وتقول له :

ـ هون عليك ! لست بملك ! انما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة !

انى والله لأخجل من قوم أراهم بعد ذلك يأخذهم الزهو بالمنصب ويركبهم الافتنان بالسلطان ، وأنا أتمثلك فى هذا الموقف الذى لا تدانيه فى علوه وقفات العواهل الفاتحين . وان مجد هذه الكلمة وحدها ليرجح فى نظرى فتوح الغزاة كافة ، وأبهة القياصر أجمعين ...

أنت بأجمعك فى هذه الكلمة ، وما أضخمها أيها الصادق الامين!

ثم سلام على الصادقين .

لا بد مما ليس منه بد

ماذا بقى من مزعم لزاعم ؟

ايمان امتحنه البلاء طويلا قبل أن يفاء عليه النصر ، وما كان النصر متوقعا أو شبه متوقع لذلك الداعى الى الله فى عاصـمة الاوثان والازلام !

وعقيدة جاءت فى طورها الطبيعى ملبية لحاجة الانسان الطبيعية، موفقة بين دينه ودنياه ، ومتلافية تلك القسمة المسقمة بين الروح والبدن ، فى السر والعلن ...

ونزاهة ترتفع فوق المنافع ، وسمو يتعفف عن بهارج الحياة ، وسماحة لا يداخلها زهو أو استطالة بسلطان مطاع ...

لم يفد ، ولم يورث آله ، ولم يجعل لذريته وعشيرته ميزة من ميزات الدنيا ونعيمها وسلطانها . وحرم على نفسه ما أحل لآحاد الناس من اتباعه ، وألغى ماكان لقبيلته من تقدم على الناس فى الجاهلية ، حتى جعل العبدان والاحابيش سواسية وملوك قريش!

لم يمكن لنفسه ، ولا لذويه . وكانت لذويه بحكم الجاهلية صدارة غير مدفوعة ، فسوى ذلك كله بالارض !

• • •

أى قالة بعد هذا تنهض على قدمين لتطاول هذا المجد الشاهق، أو تدافع هذا الصدق الصادق ؟

لا خيرة فى الأمر ...
ما نطق هذا الرسول عن الهوى ..
لا خيرة فى الأمر ...
ما ضل هذا الرسول ، وما غوى ...
لا خيرة فى الأمر ...
وما صدق بشر ان لم يكن هذا الرسول بالصادق الأمين ...
فسلام عليه بما هدى من سبيل ، وما قوم من نهج ، وما بين من محجة ...
وسلام على الصادقين ...

كتب المؤلف

(أ) مجموعة رفيق الأرض

			سنة
١ ـ الله والشيطان		مسرحية	١٩٣٦
٢ ـ الناس والدنيا		أقاصيص رمزية	١٩٣٩
٣ ـ كنت وحدى	(شعرا)	ملحمة نفسية	١٩٤١
٤ ـ المغتصبة		الياذة سوقية	١٩٥٨
٥ ـ المخمور		تراجيديا هامة	١٩٥٨
٦ ـ آكلة النيران		الياذة سوقية	١٩٥٨
٧ ـ المحترقة		الياذة فكرية	١٩٥٨

(ب) مؤلفات أخرى

٨ ـ الابنة الحائرة		قصة اجتماعية	١٩٣١
٩ ـ الله فى نظر الناس وكما هو		رسالة فلسفية	١٩٣٨
١٠ ـ أشباح المقبرة	(شعرا)	ملحمة نفسية	١٩٤٠
١١ ـ فى الحرية		رسالة فلسفية	١٩٤١
١٢ ـ أزمات انسان معاصر	:	مشكلة اليقين	١٩٥٧
١٣ ـ محمد : الرسالة والرسول			١٩٥٩

(ج) مترجمات

١٤ ـ تأملات ديكرت فيما بعد الطبيعة		١٩٤٠
١٥ ـ المقامر الجسور	(أنتونى هوب)	١٩٥١
١٦ ـ مستر بيكويك	(دكنز)	١٩٥٣
١٧ ـ عن مائة عام	(هاوزر)	١٩٥٤

١٨ ـ لاتقتل نفسك	(شتانيكروف)	١٩٥٤
١٩ ـ عش شابا طول حياتك	(بوجومولتز)	١٩٥٤
٢٠ ـ جوهرة القمر	(كولنز)	١٩٥٤
٢١ ـ الأفق الضائع	(هيلتون)	١٩٥٥
٢٢ ـ طريق السعادة	(بوشيه)	١٩٥٥
٢٣ ـ مسئولية الطبيب	(ليبراندلو)	١٩٥٧
٢٤ ـ جريمة على الشاطىء	(جراهام جرين)	١٩٥٨
٢٥ ـ أهداف التربية	(وايتهيد)	١٩٥٨
٢٦ ـ اميل	(روسو)	١٩٥٨
٢٧ ـ دموع الراهبة	(لقصاصين مختلفين)	١٩٥٨
٢٨ ـ التفكير السديد	(جاسترلو)	١٩٥٨
٢٩ ـ الأرينة النامية	(ايبانيز)	١٩٥٨
٣٠ ـ الشرك	(بيراندلو)	١٩٥٨
٣١ ـ عند الباب	(بيراندلو)	١٩٥٨
٣٢ ـ العالم المفقود	(دويل)	١٩٥٨
٣٣ ـ اغلال الخطيئة	(سيمنون)	١٩٥٨
٣٤ ـ سفينة الملذات	(ديكوبرا)	١٩٥٨
٣٥ ـ اعترافات الشباب	(تولستوى)	١٩٥٩
٣٦ ـ ثلاثية نجيب محفوظ	(جومبية)	١٩٥٩
٣٧ ـ المجهولون	(سيمنون)	١٩٥٩
٣٨ ـ اقاصيص صينية للاطفال		١٩٥٩

محتويات الكتاب